

لجنة التأليف والترجمة والنشر

---

# مجموع رسائل الجاحظ

وهي رسائل لم تنشر

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

نشرها

ياول كراوس      محمد طه الجاهري

---

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٣



بجته التأليف والترجمة والنشر

---

# مجموع رسائل الجاحظ

وهي رسائل لم تنشر

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

نشرها

يادل كراوس      محمد طه الحامري

---

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٣



## مقدمة

هذه هي الطائفة الأولى من رسائل الجاحظ التي لم تنشر واعتزمتنا نشرها ، مما أبقى عليه الأحداث المختلفة التي منيت بها آثار كاتبنا العظيم . وما زال الجاحظ — وقد مضى عليه أحد عشر قرناً — في طليعة أدباء العربية ، وأول المثل التي يتطلع إليها كتابها وطلاب البيان فيها ، كما لا يزال من أصدق المصورين للنزعات الإنسانية ، وأبرع المستشفيين لخفايا النفوس وحنايا الضمائر وحركات القلوب ، ثم هو مع هذا من أفدر الكتاب على عرض التيارات العقلية المختلفة في عصره ، فلا جرم أخذت العناية بنشر آثاره تتجه في هذا العصر اتجاهها صادقاً دائماً مصمماً . وقد أردنا بنشر هذا المجموع أن نأخذ بنصيبنا من هذه العناية ، وأن نساهم — قدر الطاقة — في إحياء ما كاد يدرس ويمحى من هذه الآثار ، وتجديد ما كاد يطمس وينهم من قسما ذلك الكاتب . وقد اخترنا أن نجلو في هذا المجموع الرسائل المفردة . وعندنا أن هذه الرسائل — على قصر الكثير منها — أبلغ في الدلالة على صاحبها من الكتب المطولة ، إذ كانت بطبيعتها معينة الموضوع محدودة الغرض . لا تأذن لعادة الاستطراد أن تداخلها وتشتت عناصرها . فكل رسالة منها وحدة قائمة بذاتها ، قد توفر الكاتب عليها ، ووجه فنه إلى غايتها ، ففضى فيها نشيطاً موفور القوة ، لا تأخذ طبعه فترة يضعف فيها ، فيتكلف ويتصنع ، ولا يناله ملل يرهقه ويقف به ، فيلتمس ما يبعث نشاطه ، فيغير سبيله ، ويحور منهجه . وهذه الطائفة الأولى التي يضمها هذا الجزء تتألف من أربع رسائل :

(د)

المعاد والمعاش ، وكتبان السر وحفظ اللسان ، والجد والهزل ، والحسد والعداوة . وكل منها يمثل ناحية من نواحي الجاحظ الفنية ، كما أنها من خير ما يعين على تصور حياته الظاهرة والباطنة . ولسنا الآن بصدد تحليل هذه الرسائل وبيان عناصرها ودلالاتها المختلفة ، فذلك أمر لا تتسع له هذه المقدمة ، وإنما نكتفي هنا بالإشارة إلى هذا الوجه من أوجه خطورتها ، إلى جانب ما يجده القارئ فيها من جمال فني خالص ، ومتاع روحي كبير

#### المصادر

اعتمدنا في نشر هذه الرسائل على المصادر المخطوطة الآتية ذكرها :

(٥) نسخة مكتبة داماد إبراهيم باشا رقم ٩٤٩ ، وتوجد صورتها الفتوغرافية في مكتبة الجامعة المصرية . وهذه المخطوطة تحتوى على ٢١٩ ورقة في حجم الثمن العادى ، وفي كل صفحة منها تقريبا ٢٣ سطراً . بخط نسخي أشبه بخط القرن الثامن . وهي لا تحمل أى إشارة تدل على تاريخ نسخها ، وكل ما عليها هو خاتم وقف داماد إبراهيم باشا لها ، وقد وصف في هذا الخاتم بأنه وزير السلطان الغازى أحمد خان (١٠١٢ - ١٠٢٦) ، وهذه هى الرسائل التى تحتوى عليها :

(١) كتاب فضائل الأتراك (ورقة ١ وما يليها)

(٢) رسالة كتبها إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق الحمودة والذمومة

(ورقة ٢١) ، وهى الرسالة الأولى فى هذا المجموع

(٣) كتاب كتبان السر وحفظ اللسان (ورقة ٣٥) ، وهى الرسالة الثالثة فى

هذا المجموع

( ٥ )

( ٤ ) رسالة المعاد والمعاش في الأدب وتديبير الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد (ورقة ٤٧) وهي رواية ثانية مستقلة لرسالة الأخلاق الحمودة المذمومة التي سبق ذكرها

( ٥ ) كتاب نحر السودان على البيضان (ورقة ٦٠)

( ٦ ) رسالة في الجذ والهزل إلى محمد بن عبد الملك الزيات (ورقة ٧٤) ، وهي الرسالة الثانية في هذا المجموع

( ٧ ) رسالة في نفي التشبيه إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد (ورقة ٨٨)  
( ٨ ) رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الايادي يخبره فيه بكتاب الفتيا (ورقة ٩٦)

( ٩ ) رسالة إلى أبي الفرج ابن نجاح الكاتب (ورقة ٩٩)

( ١٠ ) رسالة فصل ما بين العداوة والحسد (ورقة ١٠١) ، وهي الرسالة الرابعة في هذا المجموع

( ١١ ) رسالة في ذم القواد (ورقة ١١٣)

( ١٢ ) رسالة في النابتة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد أبي دؤاد (ورقة ١٢٠)

( ١٣ ) كتاب الحجاب (ورقة ١٢٦)

( ١٤ ) كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان (ورقة ١٤٤)

( ١٥ ) كتاب القيان (ورقة ١٥٨)

( ١٦ ) كتاب ذم أخلاق الكتاب (ورقة ١٧١)

( ١٧ ) كتاب القول في البغال (ورقة ١٧٨)

( ١٨ ) رسالة في الحنين إلى الأوطان (ورقة ٢١٢ إلى ٢١٩)

( و )

وفي كتاب مخطوطات الموصل للدكتور داود الجليلي ( مطبعة الفرات ببغداد سنة ١٣٤٦ - ١٩٢٧ ص ٢٦٤ ) ذكر لمجموعة من رسائل الجاحظ كانت محفوظة في مكتبة أمين بك ابن أيوب بك الجليلي ، وهي شبيهة بمجموعة داماد التي في أيدينا ، إذ تحتوي على نفس الرسائل بنفس الترتيب . إلا أن في أولها ( أى قبل كتاب فضائل الأتراك ) قطعة عنوانها : « حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياهم » ، ولعلها مأخوذة من كتاب الحيوان ( ٢ : ١٣٣ ط السامري ) أو هي منتخبة من كتاب اللصوص للجاحظ الذي لم يعثر عليه بعد ، ولا ريب أنه كان لهذه المجموعة شأن كبير في تصحيح الرسائل الواردة في مجموعة داماد ، وقد أجهنا إلى الدكتور داود الجليلي لسؤاله عنها فكتب إلينا بأن مكتبة الحاج أمين الجليلي قد تشتت بعد وفاة صاحبها ، وأنه افتقد هذه المجموعة ولكنه لم يهتد أخيراً إليها . ونحن نأسف أشد الأسف لعدم تمكننا من الاستفادة منها ، وإن كنا لا نزال نرجو أن يعثر عليها ويستفاد منها في تصحيح هذه الرسائل

( م ) مجموعة عنوانها : مختارات فصول الجاحظ محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني برقم ١١٢٩ ملحق ( Suppl. ) ، وتوجد صورتها الفوتوغرافية في مكتبة الجامعة المصرية . وهذه المخطوطة تحتوي على ٢٩٩ ورقة . وهي مكتوبة بخط نسخي حديث ، وفي آخرها : « انتهاء الفصول التي اختارها عبد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثامن عشر من شهر صفر الخير من شهر سنة أربع وتسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية على يد كاتبها الفقير عبد الله المنصوري ، اللهم اغفر له



( ز )

ولوالديه أمين أمين أمين . وقد كتبت النسخة « رسم خزانة الأمير الفاضل  
موسيو كرمير ( A. v. Kremer ) النمساوى بمحروسة مصر سنة ١٨٧٧ » كما  
يقرأ على صفحتها الأولى

وهذه المجموعة تحتوى على فصول مختارة من الرسائل الآتية :

- ( ١ ) من كتاب الحاسد والحسود (ورقة ١ وما يليها)
- ( ٢ ) من كتابه فى المعلمين (ورقة ٨)
- ( ٣ ) من كتاب التربيع والتدوير (ورقة ١٩)
- ( ٤ ) من رسالته إلى الحسن بن وهب فى مدح النبيذ وصفة أصحابه (ورقة ٤١)
- ( ٥ ) من كتابه فى طبقات المغنين (ورقة ٤٩)
- ( ٦ ) من كتابه فى البناء (ورقة ٥٢)
- ( ٧ ) من رسالته إلى الفتح ابن خاقان فى مناقب الترك وعامة جنود الخلافة  
(ورقة ٦٢)
- ( ٨ ) من كتابه فى حجج النبوة (ورقة ٨٨)
- ( ٩ ) من كتابه فى خلق القرآن (ورقة ١٢١)
- ( ١٠ ) من كتابه فى الرد على النصارى (ورقة ١٣٩)
- ( ١١ ) من كتابه فى مقالة العثمانية (ورقة ١٦١)
- ( ١٢ ) من كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة (ورقة ١٧٥)
- ( ١٣ ) من كتابه فى المعاد والمعاش (ورقة ١٨٥)
- ( ١٤ ) من رسالته إلى محمد بن عبد الملك فى الجد والهزل (ورقة ١٩١)
- ( ١٥ ) من كتابه فى الوكلاء (ورقة ١٩٤)

## (ح)

- (١٦) من كتابه في الأوطان والبلدان (ورقة ١٩٩)  
(١٧) من رسالته في البلاغة والايجاز (ورقة ٢١٩)  
(١٨) من كتابه في تفضيل البطن على الظهر (ورقة ٢٢٠)  
(١٩) في كتابه في النبل والتنبيل وذم الكبير (ورقة ٢٢٧)  
(٢٠) من رسالته إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلاطة (ورقة ٢٣٨)  
(٢١) من كتابه في استحقاق الأمانة (ورقة ٢٤٠)  
(٢٢) من رسالته في استنجاز الوعد (ورقة ٢٥٠)  
(٢٣) من رسالته في تفضيل النطق على الصمت (ورقة ٢٥٤)  
(٢٤) من كتابه في فضيلة الكلام (ورقة ٢٦٠)  
(٢٥) من رسالته في مدح التجار وذم عمل السلطان (ورقة ٢٦٥)  
(٢٦) من كتابه في الشارب والمشروب (ورقة ٢٦٨)  
(٢٧) من كتابه في الجوابات في الإمامة (ورقة ٢٧٨)  
(٢٨) من كتابه في مقالة الزيدية والرافضة (ورقة ٢٩١ إلى ٢٩٩)  
وتوجد من هذه المجموعة نسخة أخرى مطابقة لها في الخزانة التيمورية  
بدار الكتب المصرية

(ب) كتاب المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ وهو محفوظ بمكتبة برلين  
برقم ٥٠٣١ ، وهو في حجم المثنى الصغير في ١٤٣ ورقة مكتوب بخط نسخي  
حديث ، وتاريخ نسخه ٤ شعبان المسكرم سنة ١٠٦٠ ، واسم كاتبه الجم (؟)  
محمد (محمد الجم) المقرئ (أو المصرى)

وهذه المجموعة تحتوى على مختارات مختلفة من كلام الجاحظ ، ولكن  
لم يشر فيها إلى عناوين الرسائل التي اختيرت منها ، ومنها ما لا يزال مجهول النسبة

( ط )

إلى ما اختيرت منه من رسائل الجاحظ . وكان هذه المختارات لم يعن فيها بإعطاء صورة من رسائل الجاحظ ، وإنما عيّنت بإعطاء بعض النماذج البليغة من كلامه ، حتى إنها تقتصر في بعض الأحيان على جمل مفردة . ومع هذا فقد كانت قيمتها كبيرة في تصحيح كثير من المواضع وفي تسكلة بعض ما سقط من عبارات الجاحظ في سائر مصادرنا

ولم يكن حظ رسائل هذا المجموع واحدا في مصادرنا التي اعتمدنا عليها في نشرها فبينما توفرت للرسالة الأولى أربع مصادر لم تظفر الرسالة الأخيرة إلا بمصدر واحد ، وتوسّطت الثانية والثالثة بين الطرفين

والرسالة الأولى ترد في نسخة داماد مرتين بعنوانين مختلفين ، وروايتين مختلفتين أيضا . أما الرواية الأولى فعنوانها : « الأخلاق الحمودة والأخلاق المذمومة إلى محمد بن عبد الملك » ، وقد رمزنا لهذه الرواية بالرمز ٥ كسائر ما جاء في نسخة داماد . وأما الرواية الثانية فعنوانها : « رسالة المعاد والمماش إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد » ، وقد أشرنا إليها بالرمز ٤

وترد سبعة فصول مختارة من هذه الرسالة في مجموعة المتحف البريطاني التي أشرنا إليها بالرمز م ، كما ترد قطعة واحدة من أولها في مخطوطة برلين التي أشرنا إليها بالرمز ب

وأما الرسالة الثانية وهي رسالة كتمان السر وحفظ اللسان فقد وردت بتمامها في ٢ ، وتوجد قطعة صغيرة من أولها في ب

والرسالة الثالثة وهي رسالة الجدل والهزل مصدرها الأصلي نسخة ٣ ، وقد ساعدت في تصحيحها المختارات الواردة في م و ب

وأما الرسالة الرابعة فلم ترد إلا في نسخة ٤ كما قلنا

(ى)

وبعد فهذه هى مصادرنا المباشرة التى رجعنا إليها واعتمدنا عليها فى نشر هذه الرسائل ، وقد اتخذنا من نسخة المصدر الأول لنا ، وقد تحررنا قدر ما ممكن لنا التأمل والمقارنة أن نظفر بالنص الصحيح لعبارة الجاحظ ، بالرغم مما اعتور هذه المخطوطات من تحريف وتشويه وخط ونقص ، وبالرغم من أننا فى كثير من المواضع لم نظفر بأكثر من أصل واحد وقراءة واحدة ظاهرة الفساد ومع ذلك بقيت فى هذه الرسائل مواضع على فسادها ونقصها لم نوفق إلى تصحيحها ، ولم نجد العون على إقامة عوجها فى أصل آخر أو قراءة أخرى . ولكننا آثرنا أن تظهر هذه الرسائل على ما فيها ، مما فات طوقنا ، فذلك خير من أن تظل حبيسة مقيدة . وما يزال أملنا كبيراً فى أن يُتاح لنا من الوسائل ما يمهّد لنا السبيل إلى تصحيحها ، أو أن تجد من نقد الناقدين ما عسى أن يحل هذه المواضع المغشاة فيها

وأخيراً بقيت لنا كلمة صغيرة فى المنهج الذى أخذنا أنفسنا به فى نشر هذه الرسائل فسيجد القارئ فى هذه النشرة شيئاً لم يألفه ، وهو خلو الصفحات من الأرقام الكثيرة التى تشير إلى القراءات المختلفة ، وهى كثيراً ما تشتت خاطره فى متابعة القراءة فاكثفينا بالإشارة إلى الأسطر مع وضع نجمة صغيرة هكذا \* قبل الكلمات التى يعلق فى الهامش عليها . وكذلك اقتصدنا فى عبارات التعليق معرضين عن الكلمات الكثيرة التى تعتبر نوعاً من الفضول والتى ترد كثيراً فى اللشرات العربية ، فوضعنا الرمز المشير إلى المخطوطة بعد الكلمة المشار إليها . فإذا وجدت — مثلاً — فى هامش الصفحة الثانية العبارة الآتية : « (٢) والمالم والجاهل م » كان معنى هذا أن العبارة المذكورة هى قراءة نسخة م فى مقابل

(ك)

« والعالمون والجاهلون » الواردة في السطر الثاني من تلك الصفحة والمشار إليها بنجمة ، وهي قراءة نسخة الأصل ٥ وهكذا .

وكذلك اصطلاحنا على استعمال نوعين من الإشارات دلالة على النقص والزيادة وهما قوسان مربعان [ ] علامة على النقص ، وقوسان مثلثان < > علامة على الزيادة . فإذا وجدت — مثلا — في هامش الصفحة الثانية الإشارة : « (٧) [ كلها ] م » كان معنى هذا أن الكلمة « كلها » الواردة في السطر السابع والمعلم عليها بنجمة ، وهي قراءة نسخة الأصل ٥ ، محذوفة في نسخة م . وإذا وجدت ، بعد هذا التعليق التعليق الآتي : « < تسكاد > م ب » فعنى ذلك أن كلمة « تسكاد » ناقصة في الأصل ٥ وأنها مأخوذة من الروايتين الآخرين م ، ب .

أما العبارة الواردة في ص ٦١ : « (١٠) م : [ ] ٥ » فعناها أن الكلمة « نم » وضعت في المتن عن نسخة م وإن كانت محذوفة في نسخة ٥ . وكذلك العبارة الواردة في ص ٦٣ : « (١٠) < ... > ب : سمك في صدك ٥ » معناها أن الكلمات الواردة في المتن في السطر العاشر بين هاتين العلامتين مأخوذة من نسخة ب ، ناقصة في نسخة ٥

وكذلك استعملنا هاتين العلامتين « < > » في ص ٥٠ : ١٢ ، مثلا ، إشارة إلى ما سقط في الأصل واقترحنا إضافته



## رسالة المعاد والمعاش

في الأدب وتدير الناس ومعاملاتهم

كتب بها الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد

٣

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- حَفِظَكَ اللَّهُ وَأَبْقَاكَ وَأَمَتَّ بِكَ . (\*) إِنِ جَاعَاتِ أَهْلُ الْحِكْمَةِ قَالُوا : وَاجِبٌ  
 ٦ عَلَى كُلِّ حَكِيمٍ أَنْ يُحَسِّنَ الْارْتِيَادَ لِمَوْضِعِ الْبُخْيَةِ وَأَنْ يَتَيْنِيَ أَسْبَابَ الْأُمُورِ  
 وَيَهْدَ لِعَوَاقِبِهَا . فَإِنَّمَا حَمَدَتِ الْعُلَمَاءُ بِحُسْنِ التَّنَبُّثِ فِي أَوَائِلِ الْأُمُورِ وَاسْتَشْفَافِهِمْ  
 بِعَقُولِهِمْ مَا تَحْتَجُّ بِهِ الْعَوَاقِبُ ، فَيَعْلَمُونَ عِنْدَ اسْتِقْبَالِهَا مَا تَوَوَّلَ بِهِ الْحَالَاتُ فِي  
 ٩ اسْتِدْبَارِهَا ، وَبِقُدْرِ تَقَاوُسِهِمْ فِي ذَلِكَ تَسْتَبِينَ فَضَائِلُهُمْ . فَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْأُمُورِ

(٣-١) رسالة المعاد . . . أبي دؤاد (وتدبر ا) ، وكذلك مخطوطة الموصل  
 (< و > في الأدب ا) : رسالة إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة  
 من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عن الله عنه ( ورقة ٢١ في عنوان الرسالة ) ، رسالة  
 أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق المحمودة والمذمومة ( ورقة ٢١ \* ) ، من صدر كتابه في المعاد والمعاش م ، ( لا عنوان في ب ) . راجع لإرشاد  
 الأريب لياقوت ج ٦ ، ص ٧٧ : ٢ : « كتاب المعاد والمعاش » — ( هـ ) الحمد لله رب  
 العالمين وصلى الله على محمد وعلى جميع المرسلين ، أما بعد فإن جاعات د ، أما بعد فإن جاعات  
 م — ( ٦ ) وأن يبين د — ( ٧ ) واستمرافهم د

عند تكشفها وما يظهر من خفياتها، "فذلك أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول" والمالمون والجاهلون

٣ (\*) وإني عرفتك — أكرمك الله — في أيام الحداثة وحيث سلطان اللهو المخلوق للأعراض أغلب على نظرائك وسكر الشباب والحداثة المتحيين للذين والثروة مستول على لبدانك ، فأخبرت أنت وهم بيسطة المقدرة وحما الحداثة وطول الحداثة ، مع ما تقدمتهم فيه من الوسامة في الصورة والجمال في الهيئة . وهذه كلها أسباب "تكاد" توجب الانقياد للهوى "ولجج من الممالك لا يسلم منها إلا المنقطع القرين في صحة الفطرة وكمال العقل . فاستعذبهم الشهوات حتى أعطوها أزيمة أديانهم وسلطوها على مروءاتهم وأباحوها أعراضهم ، فألت بأكثرهم الحال إلى ذل القدم وفقد عز الفتي في العاجل مع الندامة الطويلة والحسرة في الآجل

١٢ وخرجت نسيج وحدك "أوحدياً في عصرك ، حكمت وكيل الله عندك — وهو عقلك — على هواك وألقيت إليه أزيمة أملك ، فسلك بك طريق السلامة وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذات أكثر مما بلغوا ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا وصرفك من صنوف

(١) فذاك — (٢) والمالم والجاهل — (٣) [وإني] قد عرفتك ب — [أكرمك الله] ب — (٤) المخلوق للأعراض — (٥) استول — (٦) وفضل الحداثة — (٧) [كلها] م — < تكاد > م ب — (٧-٨) وتلجج في الممالك < و > لا يسلم م ، ولجج للممالك < التي > لا يسلم ب — (١٠) فألت بهم ب — (١١) [والحسرة] في الآجل — (١٢) أوحدياً في نفسك م — (١٤) طريق م ب : طرق م ، سبل و — اللذات < إلى أكرمها و > أكثر ب — (١٥) [ونال... نالوا] ب — (١٥) صنوف التمتع م ، صنوف الشهوات ب



النِّعَمِ فِي أَكْثَرِ مَا نَصَرَفُوا ، وَرَبَطَ عَلَيْكَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي خَوَّلَكَ مَا أَطْلَقَهُ مِنْ  
أَيْدِيهِمْ . إِيْثَارُ الْهُوِّ وَتَسْلِيْطُهُمُ الْهُوَّى عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، نِغَاضُ بَيْتِكَ تِلْكَ  
الْجُجَجِ وَاسْتَنْقَذَكَ مِنْ تِلْكَ الْمَاعِطِبِ ، فَأَخْرَجَكَ سَلِيمَ الدِّينِ وَانْزِ الْمَرْوَةَ نَقِي ٣  
الْعَرَضِ . كَثِيرُ الْبِرِّ آمِنُ الْجِدَّةِ . وَذَلِكَ سَبِيلُ مَنْ كَانَ مَيْلُهُ إِلَى اللَّهِ أَكْثَرَ  
مِنْ مَيْلِهِ إِلَى هَوَاهُ

- ٦ "وَلَمْ أَزَلْ فِي أَحْوَالِكَ تِلْكَ كُلَّهَا بِفَضِيلَتِكَ عَارِفًا وَلَكَ بِنِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكَ غَابِطًا ،  
أَرَى ظَوَاهِرَ أُمُورِكَ الْحَمُودَةِ فَتَدْعُونِي إِلَى الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ وَأَسْأَلُ عَنْ بَوَاطِنِ  
أَحْوَالِكَ فَتَزِيدُنِي رَغْبَةً فِي الْإِتِّصَالِ بِكَ ، أُرْتِيَادًا مَنَى لِمَوْضِعِ الْخَيْرَةِ فِي الْأَخْوَةِ ،  
وَالْتِمَاسًا لِلِإِصَابَةِ الْإِصْطِفَاءِ فِي الْمَوَدَّةِ وَتَحْيِيًّا لِلْمُسْتَوْدَعِ الرَّجَاءِ فِي النَّاتِبَةِ . فَلَمَّا  
تَحَضَّنْتَ الْخَيْرَةَ وَكَشَفْتَ الْإِبْتِلَاءَ عَنِ الْحَمْدَةِ وَقَضَيْتَ لَكَ التَّجَارِبُ  
بِالتَّقْدِيمَةِ وَشَهِدْتَ لَكَ قُلُوبُ الْعَامَّةِ بِالْقَبُولِ وَالْحُبَّةِ وَقَطَعَ اللَّهُ عُذْرَ كُلِّ مَنْ  
كَانَ يَطْلُبُ الْإِتِّصَالَ بِكَ ، طَلَبْتُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْكَ وَالْإِتِّصَالَ بِحَبْلِكَ ، فَمَتَّئْتُ ١٢  
بِحُومَةِ الْأَدَبِ وَذِمَامِ كَرَمِكَ . وَكَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدِي أَنْ جَعَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ  
— حَفِظَهُ اللَّهُ — وَسِيْلَتِي إِلَيْكَ ، فَوَجَدْتُ الْمَطْلَبَ سَهْلًا وَالتَّرَادَّ مَحْمُودًا ، وَأَفْضَيْتُ  
إِلَى مَا يَحْجُوزُ الْأُمْنِيَّةَ وَيَفُوتُ الْأَمَلَ . فَوَصَلْتُ إِخَائِي بِمَوْذَنْكَ وَخَلَطْتَنِي ١٥

(١) تَصَرَّفُوا < فِيهِ > وَ (٢) لِمَإِثَارِ الْهُوَّى ، < مِنْ > لِمَإِثَارِ الْهُوِّمْ —  
[عَلَى أَنْفُسِهِمْ] وَ م ب — نِغَاضُ بِهِمْ < سَبِيل > تِلْكَ ، نِغَاضُ بِهِمْ تِلْكَ ب —  
(٤) كَثِيرُ الْبَرِّ آمِنُ الْجِدَّةِ ، صَحْنًا : كَثِيرُ الْبَرِّ مِنَ الْجِدَّةِ م ، كَثِيرُ الرِّاءِ مِنَ الْجِدَّةِ وَ ، كَثِيرُ  
الرِّاءِ مِنَ الْحَالِ ب ، كَثِيرُ الرِّاءِ وَ — (٦) فَلَمْ أَزَلْ وَ م ، فَلَمْ أَزَلْ < أَبْغَاكَ اللَّهُ >  
ب — بِنِعْمَةِ ب — (٧) الْحَمُودَةُ < فِيكَ > وَ — تَدْعُونِي وَ م — (٨) < وَ >  
أُرْتِيَادًا وَ — (٩) الْإِصْطِفَاءُ : الْمِصْطَفَى ب — وَكَشَفَ الْإِبْتِلَاءَ م — (١٠) وَقَضَيْتَ  
لِنَا ب — (١١) [كُلِّ] ب — (١٢) طَلَبْتُ الْوَسِيلَةَ لَكَ ب — (١٣) فَسَكَّنَ ب —  
أَبَا فَلَانَ ب — (١٤) [حَفِظَهُ اللَّهُ] وَ م — وَالرَّامَ ب — (١٥) بَفُوتَ الْأَمَلَ وَ —  
إِخَائِي : رَجَائِي وَ

- بنفسك وأَسْمَتْنِي فِي مَرَامِي ذَوِي الْخَاصَّةِ بِكَ ، تَفَضُّلاً لَا حِجَازَةً \* وَتَطَوُّلاً  
لَا مِكَافَاةً . فَأَمِنْتُ الْخُطُوبَ وَأَعْتَلَيْتُ عَلَى الزَّمَانِ ، وَأَتَّخَذْتُكَ لِلْأَحْدَاثِ عُدَّةً ،  
وَمِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ حِصْنًا مَنِيعًا . فَلَمَّا حُزْتُ الْمَوَاسِيَةَ ، وَتَقَلَّبْتُ مِنْ فَضْلِكَ فِي ٣  
صُنُوفِ النِّعْمَةِ ، وَزَادَ بَصَرِي مِنْ مَوَاهِبِكَ فِي السَّرُورِ وَالْحَبَرَةِ . أَرَدْتُ خِبْرَةَ  
الشَّاهِدَةِ قَبْلَوْتُ \* أَخْلَافَكَ ، وَأَمْتَحَنْتُ شَيْئَكَ ، وَعَجَمْتُ مَذَاهِبَكَ عَلَى حِينِ  
غَفْلَتِكَ وَفِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي يَقِلُّ فِيهَا تَحَفُّظُكَ ، أُرَاعِي حَرَكَاتِكَ وَأُرَاقِبُ ٦  
مَخَارِجَ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ ، فَأَرَى \* < مِنْ > اسْتِصْغَارَكَ لِعَظِيمِ النِّعْمَةِ الَّتِي تُنْعِمُ  
بِهَا وَأُسْتَكْثَارَكَ لِقَلِيلِ الشُّكْرِ مِنْ شَاكِرِيكَ ، \* < مَا > أَعْرِفُ  
< بِهِ > — \* مَا قَدْ بَلَوْتُ مِنْ غَيْرِكَ وَمَا قَدْ شَهِدْتُ لِي بِهِ التَّجَارِبُ — أَنْ ٩  
ذَلِكَ \* مِنْكَ طَمِعٌ غَيْرُ تَكَلُّفٍ . هَيِّاتَ مَا يَكَادُ ذُو التَّكَلُّفِ أَنْ يَخْفَى عَلَى  
الْعِبَاةِ فَسَكِيفٌ عَلَى مِثْلِي مِنَ الْمُتَصَنِّعِينَ (\*). فَرَادَتْني الْمَوَاسِيَةُ فَبِكَ رَغْبَةً \* وَطُولُ  
الْعِشْرَةِ لَكَ حُبَّةً ، وَأَمْتَحَانِي أَفَاعِيلُكَ لَكَ تَفْضِيلًا \* وَبِطَاعَتِكَ دَيْنُونَةً . \* وَكَانَ تَمَامُ ١٢  
شُكْرِي لِرَبِّي وَلِيَّ كُلِّ نِعْمَةٍ وَلِلْبَتْدَى بِكُلِّ إِحْسَانٍ ، الشُّكْرُ لَكَ \* وَالْقِيَامُ  
بِمِكَافَأَتِكَ بِمَا أَمَكُنْ مِنْ قَوْلٍ \* وَفِعْلٍ . لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَظَّمَ الشُّكْرَ لَهُ  
بِالشُّكْرِ \* لِذِي النِّعْمَةِ مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُمَا إِلَّا مَعًا ، لِأَنَّ أَحَدَهُمَا دَلِيلُ ١٥

(١) فِي دَوَائِي الْخَاصَّةِ بِكَ ب — (١-٢) وَتَكَرَّمَا — (٤) وَزَادَ تَصَرُّفِي  
فِي مَوَاهِبِكَ م — فِي مَذَاهِبِكَ ب — (٥) [ أَخْلَافَكَ ] و — (٦-٧) أُرَاقِبُ حَرَكَاتِكَ  
وَأُرَاعِي مَخَارِجَ أَمْرِكَ ب — (٧) < مِنْ > ب : [ ] و م — النِّعْمَةُ د —  
(٨-٩) < مَا > أَعْرِفُ < بِهِ > ب : أَعْرِفُ د و م — بِمَا : مَا ب — (٩) [ لِي ] و —  
(١٠) \* مِنْكَ مِنْ غَيْرِ تَكْلِيفٍ ب — (١٠-١١) عَلَى أَهْلِ الْفَبَاوَةِ م — (١٣-١٤) وَكَانَ  
< مِنْ > تَمَامُ لَدُنِّي < أَنْ سَأَلْتُ اللَّهَ > وَلِيَّ كُلِّ نِعْمَةٍ وَالْمُبْتَدِئُ بِكُلِّ إِحْسَانٍ < الْعَوْنُ  
عَلَى > الشُّكْرِ لَكَ و — (١٤) وَعَمِلَ د — اللَّهُ سَبَّحَانَهُ ب — (١٥) لَدَوِي النِّعْمُ م

على الآخر "وموصول" به . فمن ضييع شكر ذي نعمة من الخلق فأمر الله  
 ضييع "وبشهادته استخف" . "ولقد جاء بذلك الخبر عن الطاهر الصادق صلى  
 الله عليه وسلم" فقال : "من لم يشكر للناس لم يشكر الله . ولعمري إن ذلك  
 لموجود في الفطرة قائم في العقل ، أن من كفر نعم الخلق كان لنعم الله  
 أ كفر . لأن الخلق يعطى بعضهم بعضاً بالكلفة والمشقة وثقل العطية على  
 القلوب ، والله يعطى بلا كلفة . وهذه العلة جمع بين الشكر له والشكر  
 لذوي النعم من خلقه

فلما وجبت "على الصَّحَّة" لشكرك "وقطع عذري في مكافأتك ، اعترفت  
 بالتقصير عن تقصّي ذلك . إلا أني بسطت لساني بتقريفك ونشر محاسنك ،  
 موصول "ذلك عندي لأذان السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها . وقد  
 روى "عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أودع عرفاً فليشكره ،  
 فإن لم يمكنه فلينشره ، فإذا نشره فقد شكره . وإذا كتمه فقد كفره » (\*)  
 ثم قد رأيت أن قد بقي على أمر من الأمور يمكنني فيه برّك "هو عندي  
 عتيّد وأنت عنه غير مستغن والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة ،  
 "إن شاء الله

(\*\*) ولم أزل — أباك الله — بالموضع الذي قد علمت من جمع الكتب

(١) [و] موصول ب — (٢) وبشاهده و — [و] لقد ب — (٣-٢) الصادق عليه السلام  
 و — فقال < صلى الله عليه وسلم > و — [فقال] ب — من لم يشكر الناس لم يشكر الله  
 ب — (٦) بلا كلفة < ولا مشقة > و — (٨) [على] ب — لشكرك ب : بشكرك و ،  
 في شكرك و — وقطع ذكرى ب — (١٠) ذلك عندي لأذان السامعين ب : ذلك عندي  
 عند السامعين و ، ذلك متى عند السامعين و — (١١) عن النبي ... وسلم ب — (١٣) ثم  
 [قد] رأيت و — < و > هو عندي و — (١٥) [إن شاء الله] و

وِدْرَاسَتِهَا وَالتَّنْظِيرِ فِيهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ طُولَ دِرَاسَتِهَا إِنَّمَا هُوَ تَصْفُحُ عَقُولِ  
 الْعَالَمِينَ وَالْعِلْمُ بِأَخْلَاقِ النَّبِيِّينَ وَذَوِي الْحِكْمَةِ مِنَ الْمَاضِينَ وَالْبَاقِينَ ، مِنْ جَمِيعِ  
 ٣ الْأُمَمِ وَكُتِبَ أَهْلُ اللَّكَلِ . فَرَأَيْتُ أَنْ أَجْمَعَ لَكَ كِتَابًا مِنْ الْأَدَبِ جَامِعًا لِعِلْمِ  
 كَثِيرٍ مِنَ الْعَادِ وَالْعَاشِ ، أَصِفُ لَكَ فِيهِ عِلَلُ الْأَشْيَاءِ وَأَخْبِرُكَ بِأَسْبَابِهَا وَمَا  
 أَتَّفَقَتْ عَلَيْهِ مُحَاسِنُ الْأُمَمِ . وَعِلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَبْرَزَكَ بِهِ وَأَرْجِعُ  
 ٦ مَا أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ . وَكَانَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ اللَّهُ قَسَمَ لَكَ مِنْ  
 الْعَقْلِ وَالْفَهْمِ وَرَكَّبَ فِيكَ مِنَ الطَّبِيعِ السَّكْرِيمِ . وَقَدْ أَجْمَعْتَ الْحِكْمَاءُ أَنَّ الْعَقْلَ  
 الْمَطْبُوعَ وَالْكَرَمَ الْفَرِيزِيَّ لَا يَبْلُغَانِ غَايَةَ الْكَمَالِ إِلَّا بِمَعَاوَنَةِ الْعَقْلِ الْمَكْتَسَبِ ،  
 ٩ وَمَثَلُوا ذَلِكَ بِالنَّارِ وَالْحَطَبِ وَالْمَصْبَاحِ وَالذَّهْنِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْعَقْلَ الْفَرِيزِيَّ  
 آتَى وَالْمَكْتَسَبَ مَادَّةً ، وَإِنَّمَا الْأَدَبُ عَقْلٌ غَيْرُكَ تَزِيدُهُ فِي عَقْلِكَ

وَرَأَيْتُ كَثِيرًا مِنْ وَاضِعِي الْأَدَابِ قَبْلِي قَدْ عَاهَدُوا إِلَى الْغَابِرِينَ بِسَدَمٍ فِي  
 ١٢ الْأَدَابِ عَهْدًا قَارِئُوا فِيهَا الْحَقَّ وَأَحْسَنُوا فِيهَا الدَّلَالََةَ . إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ أَكْثَرَ  
 مَا رَسَمُوا مِنْ ذَلِكَ فُرُوعًا لَمْ يَبَيِّنُوا عِلَلَهَا وَصِفَاتِ حَسَنَةِ لَمْ يَكْشِفُوا أَسْبَابَهَا وَأُمُورًا  
 مَحْمُودَةً لَمْ يَدُلُّوا عَلَى أَصُولِهَا . فَإِنْ كَانَ مَا فَعَلُوا مِنْ ذَلِكَ رَوَايَاتٍ رَوَّعَهَا عَنْ  
 ١٥ أَسْلَافِهِمْ وَوَرِثَاتٍ وَرَّثَهَا عَنْ أَكْبَرِهِمْ ، فَقَدْ قَامُوا بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَلَمْ يَبْلُغُوا  
 فَضِيلَةَ مَنْ يَسْتَنْبِطُ . وَإِنْ كَانُوا تَرَكَوا الدَّلَالََةَ عَلَى أَعْيَانِ الْأُمُورِ الَّتِي بِمَعْرِفَةِ

(٢) النَّبِيِّينَ > صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ < م — (٤) مِنْ < أَمْرٍ > الْمَادَّةِ م —  
 (٥) مَا أَبْرَزَكَ بِهِ : مَا أَتْرَكَ بِهِ م ، مَا أَسْرَكَ بِهِ س — (٧) مِنَ الْفَهْمِ وَالْعَقْلِ د —  
 > عَلَى < أَنَّ الْعَقْلَ م — (١١) إِلَى الْغَابِرِ س — (١٢) قَارِئُوا [ فِيهَا ] س —  
 (١٤) مَا فَعَلُوا [ مِنْ ذَلِكَ ] س — (١٥-١٥) [ رَوَايَاتٍ رَوَّعَهَا عَنْ أَسْلَافِهِمْ وَوَرِثَاتٍ  
 د — (١٦) اسْتَنْبَطَ د — عَلَى عِلَالِ الْأُمُورِ د م — الَّتِي بِمَعْرِفَةِ م : الَّتِي بِمَعْرِفَةِ  
 د ، اللَّاتِي عَلَى مَعْرِفَةِ د

عَلَيْهَا يُوصَلُ إِلَى مَبَاشَرَةِ الْيَقِينِ فِيهَا . وَيُنْتَهَى إِلَى غَايَةِ الْاسْتِبْصَارِ مِنْهَا ، فَلَمْ  
يَعْدُوا فِي ذَلِكَ مَنْزِلَةً الضِّيقِ بِهَا . وَلَنْ تَجِدَ وَصَايَا أَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَبَدًا إِلَّا مَبِينَةً  
الْأَسْبَابِ مَكْشُوفَةً الْعِلَلِ مَضْرُوبَةً مَعَهَا الْأَمْثَالُ (٥)

فَأَلَفْتُ لَكَ كِتَابِي هَذَا إِلَيْكَ ، وَأَنَا وَاصِفٌ لَكَ فِيهِ الطَّبَائِعَ الَّتِي رُكِبَ  
عَلَيْهَا الْخَلْقُ وَفُطِرَتْ عَلَيْهَا الْبَرَايَا كُلُّهُمْ ، فَهَمُّ مُتَسَاوُونَ فِيهَا وَإِلَى وَجُودِهَا  
فِي أَنْفُسِهِمْ مُضْطَرُونَ وَفِي الْمَعْرِفَةِ بِمَا يَقُولُ عَنْهَا مُتَّفِقُونَ . ثُمَّ مُبَيَّنُّ لَكَ كَيْفَ  
تُفْتَرِقُ بِهِمُ الْحَالَاتُ وَتَتَفَاوَتْ بِهِمُ النِّزَالُ ، وَمَا الْعُلُلُ الَّتِي يَوْجِبُ بِمَعْضَاهَا  
بَعْضًا وَمَا الشَّيْءَ الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا لغيرِهِ . مَتَى كَانَ الْأَوَّلُ كَانَ مَا بَعْدَهُ ، وَمَا  
السَّبَبُ الَّذِي لَا يَكُونُ الثَّانِي فِيهِ إِلَّا بِالْأَوَّلِ . وَبِمَا كَانَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَكُنِ الثَّانِي ،  
وَفَرَّقَ مَا بَيْنَ الطَّبِيعِ الْأَوَّلِ وَبَيْنَ الْاِكْتِسَابِ وَالْعَادَةِ الَّتِي تُصِيرُ طَبِيعًا ثَانِيًا ،  
وَلَمْ يَخْتَلَفْ ذَلِكَ وَكَيْفَ دَوَاعِي قُلُوبِ النَّاسِ وَمَا مِنْهَا يَمْتَنِعُونَ مِنْهُ وَمَا مِنْهَا  
لَا يَمْتَنِعُونَ مِنْهُ وَمَا أَسْبَابُ نَوَازِعِ شَهَوَاتِهِمْ ، وَمَا الشَّيْءَ الَّذِي يُحْتَاطُ لِقُلُوبِهِمْ  
بِهِ حَتَّى تُسْتِمَالَ وَحَتَّى تُؤَنَسَ بَعْدَ الْوَحْشَةِ وَتُسَكَّنَ بَعْدَ الْفَنَارِ ، وَكَيْفَ يُتَأَنَّى  
لِيَنْقَضَ مَا فِيهِمْ مِنَ الطَّبَائِعِ الْمَذْمُومَةِ حَتَّى تُصَرَّفَ إِلَى الشِّيمِ الْحَمُودَةِ . وَرَاسِمٌ  
لَكَ فِي ذَلِكَ أَصُولًا وَمُبَيَّنُّ لَكَ مَعَ كُلِّ أَصْلٍ مِنْهَا عِلَّتُهُ وَسَبَبُهُ

وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَقِّ مُسْتَبْهَاتٍ لَا تُسْتَبَانُ إِلَّا بَعْدَ النَّظَرِ  
وَالْتَأَمُّلِ . وَهَنَّاكَ بِتَحْيِيلِ الشَّيْطَانِ أَهْلَ الْفَقْلَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى

(٢) وَلَنْ تَجِدُوا — [أَبْدًا] — (٤) اللَّاتِي رُكِبَ — (٥) الْبَرَايَا كُلُّهَا  
و — فِيهَا مُتَسَوُونَ — (٧) تَفَرَّقَ — (١٠) وَفَرَّقَ مَا بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَمَا بَيْنَ  
الْاِكْتِسَابِ وَالْعَادَةِ — (١٢) لِقُلُوبِهِمْ بِهِ ، صَحِّحْنَا : لِقُلُوبِهِمْ لَهُ — فِيهِ لِقُلُوبِهِمْ —  
(١٦) مِنَ الْخَلْقِ — (١٦-١٧) النَّظَرِ [وَالْتَأَمُّلِ] — (١٧) يَحْيِيلُ الشَّيْطَانِ —  
وَذَلِكَ —

- اختداعهم عن الأمر الظاهر. (\*) فلم أدع من تلك المواضع الخفية موضعاً إلا أفتُ  
 لك بإزاء كل شبهة دليلاً ومع كل خفي من الحق حجة ظاهرة، تستنبط  
 بها غوامض البرهان وتستبين بها دقائق الصواب وتستشف بها سرائر  
 القلوب، فتأتي ما تأتي عن بينة وتدع ما تدع عن خبرة، ولا يكون بك وحشة  
 إلى معرفة كثير مما يغيبُ عنك إذا عرفت العِلل والأسباب، حتى كأنك  
 شاهدٌ لضمير كل امرئ، لمعرفتك بطبعه وما ركب عليه (\*) وعوارض  
 الأمور الداخلة عليه. ثم غير راضٍ لك بالأصول حتى أتقنى لك ما بلغه  
 على من القروع. ثم لا أرسيم لك من ذلك <إلا> الأمر العقول في كل  
 طبيعة والوجود في فطرة البرايا كلها. فإب أحسنت ذلك وأثقت على  
 حدوده ونزلته منازلَه، كان محرك—وإن قصرت أيتامه—طويلاً وفارقت  
 ما لا بُدَّ لك من فراقه محموداً، إن شاء الله
- ١٢ وأعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح أن تستعمل في الدين وتُستعمل في  
 الدنيا، وإنما وُضعت الآداب على أصول الطبايع، وإنما أصول أمور التدبير في  
 الدين والدنيا واحدة. فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في  
 الدنيا، وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين
- ١٥ وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة  
 فقط، والحكم هاهنا الحكم هناك. ولولا ذلك ما قامت مملكة ولا ثبتت

(١) الأمور الظاهرة و — ولن أدع م — (٢) لك <بها> بازاء م — كل شبهة  
 <منها> و، كل شبهة <منه> م — تستنبط لها و، يستنبط به م — (٣) دقائق  
 و — وتستشف بها م : وتستشف لها و، ويستقي بها و — (٧) الداخلة فيه و — (٨) [إلا]  
 و — العقول : لعلها المقود — (١٠) وانزلته على منازل و — (١١) من مفارقتها و —  
 (١٣) أمر التدبير و — (١٤) فيه [المعاملة] في الدنيا و

دولة ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عز وجل وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا . قال ابن عباس في تفسيرها : مَنْ كَانَ ليس له مِنَ الْعَقْلِ مَا يَعْرِفُ بِهِ كَيْفَ دُبِّرَتْ أُمُورُ الدُّنْيَا ، فَكَذَلِكَ هُوَ إِذَا انْتَقَلَ ٣ إِلَى الدِّينِ ، فَإِنَّمَا يَنْتَقِلُ بِذَلِكَ الْعَقْلُ ، فَيَقْدِرُ جَهْلُهُ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ جَهْلُهُ بِالْآخِرَةِ أَكْثَرَ ، لِأَنَّ هَذِهِ شَاهِدَةٌ وَتِلْكَ غَيْبٌ ، فَإِذَا جَهِلَ مَا شَاهَدَ فَهُوَ بِمَا غَاب عَنْهُ أَجْهَلُ ٦

فَأَوَّلُ مَا أُوصِيكَ بِهِ وَنَفْسِي تَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ جَمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ وَسَبَبُ كُلِّ نَجَاةٍ وَلِقَاحُ كُلِّ رُشْدٍ ، هِيَ أَحْرَزُ حِرْزٍ وَأَقْوَى مُدِينٍ وَأَمْنَعُ جُنَّةٍ ، هِيَ الْجَامِعَةُ "مَحَبَّةُ قُلُوبِ الْعِبَادِ" وَالْمُسْتَقْبَلَةُ بِكَ مَحَبَّةٍ مَنْ لَا تَجْرَى عَلَيْهِمْ نِعْمَتُكَ . فَأَجْعَلْهَا ٩ عِدَّتَكَ وَسِلَاحَكَ وَأَجْعَلْ أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَأَحْذَرِكَ وَنَفْسِي اللَّهَ وَالْإِدْهَانَ فِي أَمْرِهِ وَالِاسْتِهَانَةَ بِعِزَّتِهِ وَالْأَمْنَ لِيَسْكُرَهُ . فَقَدْ رَأَيْتُ آثَارَهُ فِي أَهْلِ وَلايَتِهِ وَعِدَاوَتِهِ ، كَيْفَ جَعَلَهُمْ ١٢ لِلْمَاضِينَ عِبْرَةً وَلِلْفَائِزِينَ مَثَلًا

وَأَعْلَمُ أَنَّ خَلْقَهُ كُلَّهُم بِرَيْتِهِ ، لَا وَصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا بِالطَّاعَةِ . فَأَوْلَا لَهُمْ بِهِ أَكْثَرُ تَزْيِيدًا فِي طَاعَتِهِ ، وَمَا خَالَفَ هَذَا فَإِنَّهُ أَمَانٌ وَغُرُورٌ . وَقَدْ ١٥ مَكَّنَ اللَّهُ لَكَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَقْدَرَةِ وَمَهْدَ لَكَ فِي تَمْكِينِ الْغَنَى وَالْبَسْطَةِ مَا لَمْ

---

(١) قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ - (٥) فَإِنَّ جَهْلَ - (٩) قُلُوبَ حِجَّةٍ - وَالْمُسْتَقْبَلَةَ بِكَ قُلُوبَ مَنْ - نِعْمَتُكَ - (١٠) عَوْنُكَ - (١١) [اللَّهُ وَ] الْإِغْتِرَارُ بِهِ ، [بِهِ] - بِعِزَّتِهِ - (١٢) أَمْرُهُ - (١٤) وَصِيْلُهُ - (١٥) فَقَدْ - (١٦) مِنْ

تُنَحِّلُهُ بِحِيلَةٍ \* وَلَمْ تُلْقِنَهُ قُوَّةً ، لَوْلَا فَضْلُهُ وَطَوْلُهُ . وَلَكِنَّهُ مَكَّنَكَ لَيْلِي  
 خَبَرَكَ وَيَخْتَبِرُ شُكْرَكَ وَيُبْهِصِي سَعِيكَ وَيَكْتُبُ أَثْرَكَ ، ثُمَّ يُؤَفِّقُكَ  
 ٣ أَجْرَكَ وَيَأْخُذُكَ بِمَا اجْتَرَحْتَ \* يَدُكَ ، أَوْ يَمُفِّفُو فَاَهْلُ الْقَفْرِ هُوَ . وَلِلَّهِ أَبْتِلَاءُ  
 فِي خَلْقِهِ — وَالْأَبْتِلَاءُ هُوَ الْإِخْتِبَارُ — أَبْتِلَاءُ بِنِعْمَةٍ وَأَبْتِلَاءُ بِمُصِيبَةٍ . وَبِقَدْرِ  
 عِظَمِهَا يَجِبُ التَّكْلِيفُ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهَا . فَبِقَدْرِ مَا حَوَّلَكَ مِنَ النِّعْمَةِ يَسْتَأْذِيكَ  
 ٦ الشُّكْرَ . وَلَوْ تَقَعَّى اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ لَعَذَّبَهُمْ . وَلِذَلِكَ قَالَ وَلَوْ يُوَافِقُ اللَّهُ النَّاسَ  
 بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ . وَلَكِنَّهُ قَبِلَ التَّوْبَةَ وَأَقَالَ  
 الْعَثْرَةَ وَجَعَلَ بِالْحَسَنَةِ أَضْعَافَهَا

٩ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْحُكْمَ فِي الْآخِرَةِ هُوَ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا ، مِيزَانٌ قِسْطٌ وَحَكَمٌ  
 عَدْلٌ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فَمَنْ قُلْتُ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ  
 خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . وَهَذَا مِثْلُ  
 ١٢ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِأَنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ أَنَّ لَوْضِعَ فِي إِحْدَى كِفَتَيْ الْمِيزَانِ شَيْءٌ وَلَمْ يَكُنْ  
 فِي الْآخِرَى قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ، لَمْ يَكُنْ لِلْوِزْنِ مَعْنَى يُعْقَلُ . وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ  
 الْخَلْقِ لَا يَخْلُو مِنْ هَفْوَةٍ أَوْ زَلَّةٍ أَوْ غَفْلَةٍ ، فَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ كَانَتْ حَسَنَاتُهُ الرَّاجِحَةَ  
 ١٥ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ، مَعَ النَّسَدِ عَلَى السَّيِّئَاتِ ، كَانَ عَلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ وَطَرِيقِ الْفَوْزِ  
 بِالْإِنْفَاحِ ، وَمَنْ مَالَتْ سَيِّئَاتُهُ بِحَسَنَاتِهِ كَانَ الْعَطَبُ وَالْعَذَابُ أَوَّلَى بِهِ . وَكَذَلِكَ  
 حُكْمُهُ فِي الدُّنْيَا ، لِأَنَّهُ قَدْ تَوَلَّى أَوْلِيَاءَ مِنْ خَلْقِهِ وَشَهِدَ لَهُمْ بِالْقَدَالَةِ . وَقَدْ  
 ١٨ طَابَتْهُمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ لِقَابَةُ الصَّلَاحِ فِي أَعْمَالِهِمْ وَإِنْ هَفَوا وَتَبَرَّأَ مِنْ آخِرِينَ

(١) تله و — ولم يلقنه د ، ولا بلغة و — (٣) يداك و — (٥) [من الله] و —

(٦) قال < جل ذكره > و — (١٢) يكن و — (١٧) [قد] و



وعاداهم لغلبة الجور\* على\* أفاعيلهم وإن أحسنوا في بعض الأمور . وكذلك  
جَرَتْ مُعَامَلَاتُ الخلق بينهم ، يعدّلون العادلَ\* بالغالب من فعله وربما أساء  
وينسّقون الفاسق وربما أحسن . وإنما الأمورُ بعواقبها وإنما يُقضى على كل\* ٣  
أمرى\* بما شا كل أحواله

فهذه الأمورُ قائمةٌ في العقول جَرَتْ عليها المعاملة واستقامت بها  
السياسة لا أختلاف بين الأمة فيها . فلا تَفِينَنَّ حَظَّكَ مِنْ دِينِكَ . وإن ٦  
استطعت أن تبلغ من الطاعة غايتها فَلِنَفْسِكَ تمهد ، وإلا فأجهد أن يكون  
أغلب\* أفعالك عليك الطاعة مع الندامة عند الإساءة ويكونَ مِيلُكَ عند  
الإساءة إلى الله أَكْثَرَ ، والله يوفقك ٩

إِعلم أَنَّ الله جلّ ثناؤه خَلَقَ خَلْقَهُ ثم طبعهم على حُبِّ اجترارِ المنافع  
ودفعِ المضارِّ\* وُبعض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبعٌ مرْكَبٌ وجِبِلَةٌ  
مفطورة ، لاخلاف بين الخلق فيه موجودٌ في الأنس والحيوان ، لم يدعْ غيره ١٢  
مدعٍ من الأولين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد الحجةُ والبغضاءُ  
أكثر\* < . . . . > كزيادته تميل الطبيعة معها كميل كفتي الميزان "قل ذلك  
أو أكثر ١٥

"وهاتان خلتان داخلٌ فيهما جميعُ محابِّ العباد ومكارِهِهم . والنفسُ في  
طَبْعِها حُبُّ الراحة والدعة والازديادِ والعُلُوِّ والعِزِّ والقَلْبَةِ والاستطرافِ

---

(١) [في أفعالهم ... لغلبة الجور] د — أفعالهم و — (٢) الناس و —  
(٣-٤) [بالغالب ... كل أمرى] و — (٦) تعتبر د — فإن و — (٨) أفاعيلك  
[عليك] د — مِيلُكَ [عند الإساءة] و — (١٠) < و > اعلم و — [حُب] اجترار و —  
(١١) ونقص من كان د — خلاف و — (١٤) < . . . > : سقط في د كما يظهر —  
معها و — كثر ذلك أو قل و — (١٦) وهاتان جملتان د

والتنوّقِ وجميع ما تَسْتَلِذُّ الحواسُّ مِنَ المناظرِ الحسنةِ والروائحِ العِقيقةِ والطعومِ الطيبةِ والأصواتِ الموثقةِ والملابسِ اللذيذةِ ومما كراهته في طباعهم أصدادُ ما وصفتُ لك وخلافه ٣

فهذه الخلالُ التي يجمعها خَلَّتَانِ غرائزُ في الفِطَرِ وكوامِنُ في الطبعِ ، جيلةٌ ثابتةٌ وشيعةٌ مخلوقةٌ . على أنها في بعضٍ أكثرُ منها في بعضٍ ، ولا يعلمُ قدرُ القلةِ فيه والكثرةِ إلّا الذي دبرهم . فلما كانت هذه طبائعهم أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم وجعل في ذلك ملاذَّ لجميع حواسهم ، فتعلقت به قلوبهم وتطلعت إليه أنفسهم . فلو تركهم وأصل الطبيعة — مع ما مكن لهم من الأرزاق المشتهاة في طبائعهم — صاروا إلى طاعة الهوى وذهب التعاطفُ والتباضُّ . وإذا ذهب كان ذلك سببا للفساد وانقطاع التماسُلِ وفناء الدنيا وأهلها . لأنَّ طبع النفس لا يسلس بعطيةٍ قليلٍ ولا كثيرٍ مما حوته ، حتى تُعَوِّضَ أكثرُ مما تُعطى إما عاجلاً وإما آجلاً مما تَسْتَلِذُّ حواسها . ١٢

فَعَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ لَا يَتَعَاطَفُونَ وَلَا يَتَوَاصِلُونَ وَلَا يَنْقَادُونَ إِلَّا بِالتَّأْدِيبِ ، وَأَنَّ التَّأْدِيبَ لَيْسَ إِلَّا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَأَنَّ الْأَمَرَ وَالنَّهْيَ غَيْرُ نَاجِعَيْنِ فِيهِمْ إِلَّا بِالترغيبِ والترهيبِ اللّذينِ في طباعهم . فدعاهم بالترغيبِ إلى جَنَّتِهِ وجعلها عِوَضًا مِمَّا تَرَكَوا فِي جَنَبِ طَاعَتِهِ ، وَزَجَّرَهُم بِالترهيبِ بالنارِ على مَعْصِيَتِهِ وَخَوْفِهِم بِعِقَابِهَا عَلَى تَرْكِ أَمْرِهِ . وَلَوْ تَرَكَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَالطَّبِيعُ الْأَوَّلُ جَرَّوْا عَلَى

(١) التنوّق ، صحنا : الطول د — (٢) والطعم ذو الطيبة د — كراهيته في طباعها د — (٣) فهذه الخلال التي < وصفت لك > يجمعها د — (٤) إلّا أنها د — (٥) [ قدر ] القلة [ فيه ] والكثرة د — (٦) [ به ا د — (٧) ] ولا ينقادون [ د — (٨) ] (وَأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ) د — [ فيهم ] د — (٩) طبائعهم د — (١٠) طاعتهم د — (١١) والطباع د

سَنَ الْفِطْرَةِ "وعادة الشيمة"، ثم أقام الرغبة والرهبة على حدود العدل وموازن النصفة، وعدلهم تعديلاً متفقاً فقال فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

٣

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخل في تدييره الخلل ولا جائز عنده المحابة، ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده وأوعده. فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة، فأطرد التديير واستقامت السياسة، لموافقتها ما في الفطرة وأخذها بمجامع المصلحة.

٦

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس وأكثر معصيته فيما تله. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «حُقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَالنَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»، "ينبغي أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره والطريق إلى النار اتباع الشهوات". "فإذ كانوا لم يصلحوا لخالفهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفت لك من الرغبة والرهبة، فأعجز الناس رأياً وأخطأهم تدييراً وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها مَنْ أَتَى أَوْ ظَنَّ أَوْ رَجَا أَنْ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ — فَوْقَهُ أَوْ دُونَهُ — يَصْلَحُ لَهُ ضَمِيرُهُ أَوْ يَصِحَّ لَهُ بِخِلَافِ مَا دَبَّرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ. فَالرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ أَصْلَا كُلِّ تَدْيِيرٍ وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ كُلِّ سِيَاسَةٍ عَظُمَتْ أَوْ صَغُرَتْ. فَأَجْعَلُهُمَا مِثَالًا الَّذِي يُحْتَدَى عَلَيْهِ وَرُكْنًا الَّذِي يُسْتَنْدُ إِلَيْهِ

١٢

١٥

(١) وعادات — (٤) [الله] — جائزة — (١٠-١١) [ينبغي . . . الشهوات] — (١١) فإذا — (١٢) [لك] — (١٤) أودونه > أو من يظن أن < يصلح — (١٥) أصل لكل

- (\*) وأعلم أنك إن أهملت ما وصفت لك ، عرضت تدبيرك للاختلاط .  
 وإن آثرت الهوينا واتكلت على الكفاية في الأمر الذي لا يجوز فيه  
 ٣ إلا نظرك ، وزجيت أمورك على رأى مدخول وأصل غير محكم ، رجع ذلك  
 عليك بما لو حُكِمَ فيك عدوك كان ذلك غاية أمنيته وشفاء غيظه  
 وأعلم أن إجراءات الأمور مجاريها واستعمالك الأشياء على وجوهها ،  
 ٦ يجمع لك ألفة القلوب ويعامل كل من عاملك بمودة أخذاً وإعطاءً ، وهو  
 على ثقة من بصرك بمواضع الإنصاف وعليك بموارد الأمور (\*)  
 وأعلم أن أثرتك على غير النصيحة والشفقة والحُرمة والكفاية توجب  
 ٩ المباعدة وقلة الثقة من أثرته أو آثرت عليه . فأعرف لأهل البلاء ممن  
 جرت بينك وبينه مودة أو حُرمة — ممن فوقك أو دونك أو نظراءك —  
 أقدارهم ومنازلهم ، ثم لتسكن أمورك معهم على قدر البلاء والاستحقاق .  
 ١٢ ولا تؤثر في ذلك أحداً بهوى ، فإن الأثرة على الهوى توجب السخطة وتوجب  
 استصغار عظيم النعمة ويُعحق بها الإنضال وتفسد بها الطائفتان من  
 آثرت ومن آثرت عليه

(١) اعلم م — إذا أهملت م — (٢) آثرت الهوينا على الكفاية التي لا يجوز  
 فيها م — على الكفاية في الأمر م — (٣) وركبت أمورك م ، وزجيت أمرك م —  
 (٤) حُكِمَ < به > فيك م — (٦) أخذاً وإعطاءً ، صحنا : أو أخذاً وإعطاءً م ، وأخذ  
 وإعطاءً م ، في أخذ أو إعطاء م — (٧) نصرك م — بمواقف م — (٨) توجب < لك >  
 م — (٩) لأهل البلد م — (١١) ثم لم تسكن أمورك معهم بقدر م — (١٢) ولا تؤثر  
 في ذلك أحداً بهوى ، صحنا : ولا تؤثر في ذلك أخذ الهوى م ، ولا تؤثر أحداً في ذلك  
 بهوى م — (١٣) ويمسى م — وتفسد عليها م — (١٤) آثرت م

أَمَا مَنْ "آثَرَتْ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُؤْثِرْهُ بِاسْتِحْقَاقٍ بَلْ لِهَوًى فَهُوَ مَرْتَقِبٌ أَنْ  
يَنْتَقِلَ هَوَاكَ إِلَى غَيْرِهِ "فَتَحُولُ آثَرَتُكَ حَيْثُ مَالَ هَوَاكَ . فَهُوَ مَدْخُولُ الْقَلْبِ  
فِي مَوْدَتِكَ غَيْرُ آمِنٍ لِتَغْيِيرِكَ

٣

- وَأَمَّا مَنْ آثَرَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ الْإِسْتِحْقَاقِ مِنْهُ ، فَقَدْ جَعَلَتْ لَهُ السَّبِيلَ إِلَى الطَّعْنِ  
عَلَيْكَ وَأَعْطَيْتَهُ الْحُجَّةَ عَلَى نَفْسِكَ . فَكُلُّ مَنْ يَعْمَلُ عَلَى غَيْرِ ثِقَةٍ "عَادَ  
مَا أَرَادَ بِهِ النَّفْعَ ضَرَرًا "وَالْإِصْلَاحَ فُسَادًا . وَبِمَا آثَرُ الرَّجُلُ الْمَرَّةَ مِنْ إِخْوَانِهِ ٦  
بِالْعَطِيَّةِ السَّنِيَّةِ عَلَى بِلَاءِ أَبْلَاءٍ ، فَيَعْظُمُ قَدْرُهُ عِنْدَهُ ، حَتَّى لَعَلَّهُ تَطْيِيبُ نَفْسِهِ بِبَذْلِ  
"مَالِهِ وَدَمِهِ دُونَهُ . فَإِنْ أُعْطِيَ مَنْ أَيْلَى كِبَالَهُ وَكَانَتْ لَهُ مِثْلُ "دَالَتِهِ أَكْثَرَ  
مِمَّا أُعْطَاهُ ، انْتَقَلَ "كُلُّ مَحْمُودٍ مِنْ ذَلِكَ مَذْمُومًا وَكُلُّ مُسْتَحْسَنٍ "قَبِيحًا . ٩  
"وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي الْعُقُوبَةِ يَجْرِي بِمِثْلِ وَاحِدٍ . "فَاجْعَلِ الْعَدْلَ وَالنَّصِفَةَ فِي  
الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ "حَكَمًا بَيْنَكَ وَبَيْنَ إِخْوَانِكَ ، فَمَنْ قَدَّمَ مِنْهُمْ فَقَدَّمَهُ  
"بِالْإِسْتِحْقَاقِ وَبِصِحَّةِ النِّيَّةِ فِي مَوْدَتِهِ وَخُلُوصِ "نَصِيحَتِهِ مِمَّا قَدْ بَلَوْتَ مِنْ ١٢  
أَخْلَاقِهِ وَشَيْئِهِ وَعَلِمْتَ بِتَجَرُّبَتِكَ لَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ صَلَاحَهُ مُوَصُولٌ بِصَلَاحِكَ  
وَعَطْبُهُ كَأَنَّ "مَعَ عَطْبِكَ . فَفَوِّضِ الْأَمْرَ إِلَيْهِ وَأَشْرِكْهُ فِي خَوَاصِّ "أُمُورِكَ  
وَخَفِي "أَسْرَارَكَ . ثُمَّ أَعْرِفْ لَهُ قَدْرَهُ فِي مَجْلِسِكَ وَ"مُحَاورَتِكَ وَمُعَامَلَتِكَ ، فِي ١٥  
كُلِّ "حَالَتِكَ وَمُزَاولَاتِكَ ، فِي خَلَوَاتِكَ مَعَهُ "وَبِحَضْرَةِ جُلُوسَاتِكَ . فَإِنَّ ذَلِكَ

(١) آثَرَتْه — (٢) فَتَحُولُ — (٥) حَالٌ مَا أَرَادَ — (٦) وَالْإِصْلَاحَ <فِيهِ>  
فُسَادًا — (٧) بِلَاءٌ — (٨) مَالُهُ وَنَفْسُهُ — (٩) فَانْ <مِنْ>  
أُعْطِيَ — (١٠) دَلَالَتُهُ — (١١) كَلَّ مَذْمُومٍ مِنْ ذَلِكَ عَمُودًا — (١٢) عَلَى الْإِسْتِحْقَاقِ  
بِصِحَّةٍ — (١٣) نَصِيحَتِهِ <لَكَ> مِنْ قَدْ بَلَوْتَ فِي أَخْلَاقِهِ — (١٤) أَمْرُكَ —  
(١٥) وَمُعَادَاتِكَ — (١٦-١٥) [وَمُعَامَلَتِكَ . . . مَعَهُ]

- زيادة في نيته وداعية لمن دونه إلى التقرب إليك بمثل نصيحته . (٥) فإن  
 أبليت في بعض الأوقات بمن يتقرب بجرمة ويئت بدالة ، يطلب المكافأة  
 ٣ بأكثر مما يستوجب ، فدعاك السكرم والحياة إلى تفضيله على من هو أحق  
 منه . إما خوفاً من لسانه أو مداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذار إلى من  
 فوقه من أهل البلاء والنصيحة وإظهار ما أردت من ذلك لهم . فإن أهل  
 ٦ خاصتك والمؤمنين على أسرارك ، هم شركاؤك في القيش ، فلا تستهين  
 بشيء من أمورهم . فإن الرجل قد يترك الشيء من ذلك أنكالا على حسن  
 رأى أخيه ، فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو ، حتى يولد ضيقاً ويحول  
 ٩ عداوة . فتحفظ من هذا الباب واحمل إخوانك عليه بجهدك  
 وستجد فيمن يتصل بك من يغلبه إفراط الحرص وحمياً الشره ولين  
 جانبك له ، على أن ينقم العافية ويطلب الحقوق بمنازل من ليس مثله  
 ١٢ ولا له مثل دالته ، فتلقاه لما تصنع به مستقلاً ولمعرفك مستصغراً . وصالح  
 من كانت هذه حاله بخلاف ما قسّد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشيمهم ،  
 ودواكل من لا بد لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجع فيه : إن ليلاً فليلاً ،  
 ١٥ وإن شدة فشدّة . فقد قيل في المثل :

مَنْ لَا يُؤَدِّبُ الْجَمِيلُ فِي عُقُوبَتِهِ صَلَاحُهُ (٥)

(١) زائد في نيتك وواع — (٢) بليت و — يضرب و — (٣) [والحياة] و —  
 [هو] د — (٤) تخوفاً د — من <هو> فوقه م — (٦) فلا تستهين و ،  
 لا تستهين م — (٨) كذلك م — ونسب و — (١٠) من يتصل بك من د ، من  
 يتصل بك من م — من يعطيه و — (١١) اللحاق و — من ليس <هو> مثله د —  
 (١٢) تصنع [به] مستقلاً و

وقال بعض الحكماء : ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يجِدُ من معاشرته  
بداً بالعدل والفضة ، حتى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً

- فأحفظ هذه الأبواب التي يوجب بعضها بعضاً . وقد ضمنت لك أوائلها ٣  
كونَ أوآخرها ، فاعرفها واقتبسها ، وأعلم أنه متى كان الأول منها وجب  
ما بعده لا بُدَّ منه . فأحذر المقدمات التي يعقبها المكروه ، وأحرص على توطيد  
الأمور التي على أثرها السلامة ، وألقح في البدئ أموراً نتاجها العافية . فن ٦  
الأمور التي يوجب بعضها بعضاً : المنفعة توجب المحبة والمضرة توجب  
البغضاء والمضادة توجب القداوة ، وخلاف الهوى يوجب الاستئثار ومتابعته  
توجب الألفة ، والصدق يوجب الثقة والكذب يورث التهمة والأمانة ٩  
توجب الطمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة ،  
وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط  
يوجب المؤانسة والانتباض يوجب الوحشة ، والكبر يورث ١٢  
المقت والتواضع يوجب المقة ، والجود بالقصد يوجب الحمد والبخل يوجب  
المذمة ، والتواني يوجب التضييع والجِدُّ يوجب رخاء الأعمال ، والهويناء  
تورث الحسرة والحزم يورث السرور ، والتغريز يوجب القدامة والحدُّز ١٥  
يوجب النذر وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة ، والاستهانة توجب  
التباغي والتباغي مقدمة الشر وسبب البوار

- (١) وقد قال د — (١-٢) من لا بد له من معاشرته د — (٢) له [من أمره]  
فرجاً [ومخرجاً] د — (٣) واحفظ د — [لك] د — (٤) فاعرفها [واقتبسها —  
(٦) والصح في بدئ الأمور التي د — تائجها د — (٨) والمتابعة د — (٩) التهمة د —  
(١١) التباعد د — (١٢) موضع أسكلة في د وكأنها « والتكبر » — يوجب د —  
(١٣) والجود والفضل يوجبان د — (١٤) [الأعمال] د — (١٥) يورث د —  
(١٦) [إصابة التدبير توجب بقاء النعمة] د — (١٧) مقدمات د

ولكل شيء من هذه إفراط وتقصير . وإنما تصح نتائجها إذا أقيمت على حدودها . وبقدر ما يدخل من الخلل فيها يدخل فيما يتوَلَّد منها ، لا بد منه ولا مَرَحَل عنه ، عليه عادة الخلق وبه جَرَّت طبائعهم ، وتماثُ المنفعة بها إصابة مواضعها . فالإفراط في الجود يوجب التذير ، والإفراط في التواضع يورث اللذلة ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخفاصة ، والإفراط في الموانسة يدعو خلطاء السوء ، والإفراط في الانقباض يوحش إذا النصيحة ، وآفة الأمانة ائتمان الخيانة ، وآفة الصدق تصديق الكذبة ، والإفراط في الحذر يدعو إلى أن لا يُوثق بأحد وذلك ما لا سبيل إليه ، والإفراط في المصرة مبعشة على حربك ، والإفراط في جر المنفعة غمًا لمن أفرطت في نفعه عنك

وأحذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم ، فيمثل لك التواني في صورة التوكل ويسلبك الحذر ويورثك الهوينا بإحالتك على الأقدار . فإن الله إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم للقضاء بعد الإعذار . بذلك أنزل كتابه وأمضى سُنَّتَه ، فقال خُذُوا حِذْرَكُمْ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ . وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إِعْلَمُوا وَتَوَكَّلُوا » . وسئل ما الحزم ؟ قال الحذر . فتحفظ من هذا الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى

(١) من هذا (٤) النعمة — موضعها — (٥) يوجب — يدعو العقب  
 (٦) والإفراط في (الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد و) الانقباض (٧)  
 (٧) ذوى النصيحة — الائتمان (٨) يدعو [إلى] ألا يثق — (٩) [والإفراط  
 في المصرة ... حربك] (١١) يخذعك — الحرص (١٣) فإن الله (١٥) وجل  
 و (١٥) [وآله]



وأعلم أن أكثر الأمور إنما هو على العادة وما تُضَرَى عليه النفوس ،  
ولذلك قالت الحكماء : العادة أملك بالأدب . فَرَضْ نفسك على كل أمرٍ  
محمود العاقبة وَضَرَّها بكلِّ ما لا يُذَمُّ من الأخلاق ، يَصِرْ ذلك  
طِبَاعًا وَيُنْسَبُ إِلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ مما أنت عليه

وأعلم أن الذي يُوجب لك اسمَ الجود القيامُ بواجب الحقوق عند  
النوائب مع بعض التفضل على الراغبين ، وإذا وجب لك اسمُ الجود زال  
عنك اسمُ البُخل

وأعلم أن تشميرَ المالِ آلةً للكمالِ وَعَوْنٌ على الدينِ ومُتَأَلِّفٌ للإخوان ،  
وَأَنْ مَنْ قد فقدَ المالَ قَلَّتْ الرَغْبَةُ إِلَيْهِ والرهبةُ مِنْهُ ، ومن لم يكنْ بموضع  
رَغْبَةٍ ولا رهبةٍ استهانَ الناسُ بِهِ . فَأَجْهَدْ الجَهْدَ كُلَّهُ أَلَّا تَزَالَ القلوبُ معلقةً  
منك برَغْبَةٍ أو رهبةٍ في دينٍ أو دنيا

وأعلم أن السرف لا بقاءَ معه لِكثيرٍ ولا تشميرَ معه لِقليلٍ ولا تَصْلُحُ  
عليه دنيا ولا دين . وَتَأْدَبْ بما أَدَبَ اللهُ نَبِيَّهٗ فَقَالَ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً  
إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا . وقالت الحكماء :  
الْقَصْدُ أَبْقَى لِلْجِوَارِ . فداومْ حالَكَ وبقاءَ النعمة عليك بتقديرِ "أمورك" على قَدْرِ  
الزمان بقدر الإمكان . فقد قال الشاعر

مَنْ سَابَقَ الدَّهْرَ كَبَا كَبُوءٌ لَمْ يَسْتَقِلْهَا مِنْ خُطَى الدَّهْرِ

(١) هي و — (٣) ورَضَها و — الاخلاص يصير و — (٤) طبعها و — (٩) و [أن]  
من [قد] فقد و — (١٠) بقدره و — (١١) ورهبة و — (١٣) وتأدب الله فيه ما أدب  
به نبيه صلى الله عليه وسلم و — (١٥) أمرك و — (١٦) وبقدر و

فَأَخْطُ مَعَ التَّهْمِ إِذَا مَا خَطَا وَأَجْرٍ مَعَ التَّهْمِ كَمَا يَجْرَى

وَأَعْلَمُ أَنَّ الصَّمْتَ فِي مَوْضِعِهِ رَبِّمَا كَانَ أَنْفَعُ مِنَ الْإِبْلَاحِ بِالْمَنْطِقِ  
 ٣ فِي "مَوْضِعِهِ" وَعِنْدَ إِصَابَةِ فُرْصَتِهِ ، وَذَلِكَ صَمْتُكَ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تَصْمْتَ  
 عَنْهُ عَيْنًا وَلَا رَهْبَةً . فَلْيَزِدْكَ فِي الصَّمْتِ رَغْبَةً مَا تَرَى مِنْ "كَثْرَةِ فِضَائِحِ  
 الْمُتَكَلِّمِينَ فِي غَيْرِ الْقُرُصِ" وَهَذَرٍ مَنْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ بِغَيْرِ "حَاجَةٍ"

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْجَبْنَ جُبْنَانِ وَالشَّجَاعَةَ شَجَاعَتَانِ ، وَلَيْسَ تَكُونُ الشَّجَاعَةُ  
 وَالْجَبْنَ إِلَّا فِي كُلِّ أَمْرٍ لَا يُدْرَى مَا عَاقِبَتُهُ يُخَاطَرُ فِيهِ بِالْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ .  
 فَإِذَا أُرِدْتَ الْحَزَمَ فِي ذَلِكَ فَلَا تَشْجَعَنَّ نَفْسُكَ عَلَى أَمْرٍ أَبَدًا إِلَّا وَالَّذِي تَرْجُو  
 ٩ مِنْ نَفْعِهِ فِي الْعَاقِبَةِ أَعْظَمُ مِمَّا تَبْذُلُ فِيهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، ثُمَّ يَكُونُ "الرَّجَاءُ فِي  
 ذَلِكَ أَغْلَبَ عَلَيْكَ مِنَ الْخَوْفِ" . وَهَاهُنَا مَوْضِعٌ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى النَّظَرِ : فَإِنْ كَانَ  
 ذَلِكَ أَمْرًا وَاجِبًا فِي الدِّينِ أَوْ خَوْفًا لِعَارِ تُسَبُّ بِهِ الْأَعْقَابُ فَأَنْتَ مُعَذَّوْرٌ  
 ١٢ "بِالْمُخَاطَرَةِ فِيهِ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ" . وَإِنْ كَانَ "أَمْرًا تَعْظُمُ مَنَفَعَتُهُ لِلدُّنْيَا" إِلَّا أَنَّكَ  
 لَا تَنَالُهُ إِلَّا بِالْخَطَارِ بِمُوجَةِ نَفْسِكَ أَوْ بِتَعْرِيطِ كُلِّ مَالِكَ لِلتَّلَافِ ، فَالْإِقْدَامُ  
 عَلَى مِثْلِ هَذَا لَيْسَ بِشَجَاعَةٍ وَلَكِنْ حِمَاةٌ بَيْنَهُ عِنْدَ جَمِيعِ الْحُكَمَاءِ . وَقَدْ قَالَتْ  
 ١٥ "عُلَمَاءُ أَوَائِلِ النَّاسِ : لَا تُرْسِلِ السَّاقَ إِلَّا مُمَسَّكًا سَاقًا" . وَقَالُوا : لَا تُخْرِجِ الْأَمْرَ  
 كُلَّهُ مِنْ يَدِكَ وَخُذْ بِأَحَدِ جَانِبَيْهِ . ثُمَّ الشَّجَاعَةُ وَالْجَبْنَ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ الْحَالَاتِ  
 وَالْأَوَاقَاتِ

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ مَا أَنْتَ مُسْتَظْهَرٌ بِهِ عَلَى عَدُوِّكَ ثَلَاثُ خِلَالٍ : أَشْرَفُهَا أَنْ

(١) عَلَى مَا خَطَا — (٢) فِي <غَيْرِ> مَوْضِعِهِ — (٤) [ كَثْرَةٌ ] —  
 (٥) حَاجَةٍ — (٦) وَلَيْسَتْ الشَّجَاعَةُ — (٩) مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ — (١٠-١١) الرَّجَاءُ  
 أَعْظَمُ ذَلِكَ — (١٢) فِي الْمُخَاطَرَةِ — أَمْرٌ — (١٥) عُلَمَاءُ الْأَوَائِلِ — مَسْكٌ —

تَأْخُذَ عَلَيْهِ بِالْفَضْلِ وَتَبْتَدِئَهُ بِالْحُسْنَى ، فَتَكُونُ عَلَيْهِ رَحْمَةً وَلِنَفْسِكَ نَازِعًا ،  
فَإِنَّ كَثْرَةَ الْأَعْدَاءِ تَنْغِيصٌ لِلسُّرُورِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَدْفَعْ بِالَّذِي هُوَ  
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . ٣ فَإِنْ كَانَ عَدُوُّكَ  
مَنْ لَا يَصْلُحُ عَلَى ذَلِكَ ، فَخُصِّنْ عَنْهُ أَسْرَارَكَ وَعَمَّ عَلَيْهِ آثَارُ تَدْبِيرِكَ وَلَا  
يُطْلَعَنَّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَكَايِدِكَ لَهُ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ ، فَيَأْخُذَ حِذْرَهُ وَيَعْرِفَ  
مَوَاضِعَ عَوَارِكَ . فَإِنَّ تَحْصِينَ الْأَسْرَارِ أَخْذٌ بِأَزْمَةِ التَّدْبِيرِ ٦ وَإِكْثَارُ الْوَعِيدِ  
لِلْأَعْدَاءِ فَشَلٌّ ، وَلِسَكْنُ دَاجِرِ عَدُوِّكَ مَا دَا جَاكَ وَأَحْصِ مَعَايِبَهُ مَا لَاحَاكَ .  
وَقَالَ الشَّاعِرُ :

كُلُّ يَدَاجِي عَلَى الْبَفْضَاءِ صَاحِبِهِ زَكِنْتُ مِنْهُمْ عَلَى مِثْلِ الَّذِي زَكِنُوا ٩  
وَأَعْلَمُ أَنَّ أَعْظَمَ أَعْوَانِكَ عَلَيْهِ الْحَجِيجُ ثُمَّ الْفُرْصَةُ . ثُمَّ لَا تُظْهِرَنَّ عَلَيْهِ  
حُجَّةً وَلَا تَهْتَبِلْ مِنْهُ غِرَّةً وَلَا تَطْلُبَنَّ لَهُ عَثْرَةً وَلَا تَهْتَكَنَّ لَهُ سِتْرًا ، إِلَّا  
عِنْدَ الْفُرْصَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَفِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَجِبُ لَكَ فِيهَا الْعَذْرُ وَيَعْظُمُ فِيهَا ١٢  
ضَرَرُهُ . هَذَا إِنْ كَانَ الْعَفْوُ عَنْهُ شَرًّا لَهُ . وَإِنْ كَانَ مَنْ يُظْهِرُ لَكَ  
الْعَدَاوَةَ وَيَكْشِفُ لَكَ قِنَاعَ الْحَارِبَةِ وَكَانَ مِمَّنْ أَعْيَاكَ اسْتِصْلَاحُهُ بِالْحِلْمِ  
وَالْإِنَاءَةِ ، فَلْتَكُنْ فِي أَمْرِهِ بَيْنَ حَالَيْنِ : اسْتِطْبَانِ الْحَذَرِ مِنْهُ وَالْإِسْتِعْدَادِ ١٥  
لَهُ ، وَإِظْهَارِ الْإِسْتِهْنَاءِ بِهِ . وَلَسْتَ مُسْتَظْهِرًا عَلَيْهِ بِمِثْلِ طَهَارَتِكَ مِنْ  
الْأَدْنَسِ وَبِرَاءَتِكَ مِنَ الْمَعَايِبِ . فَلْتَكُنْ هَذِهِ سِيرَتُكَ فِي أَعْدَائِكَ

(٤) [آثار] و — (٥) مكاييدك و — (٦) والاكثر من الوعيد للأعداء و —

(٧-٩) [مالاحاك . . . زكنوا] و — (١٠) [ثم الفرصة] و — (١١) [إلا]

و — (١٥) استظهار و

وأعلم أن إشاعة الأسرار فساد في كل وجه من الوجوه " من العدو والصديق . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « استمعينوا على الصوائح بسترها ، فإن كل ذي نعمة محسود » ٣

« وإذا أفضيت سرّك فجاءت الأمور على غير ما تقدّر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك » . وقد قيل " في الأمثال : من أفضى سرّه كثير المتأمرّون عليه . " فلا تصع سرّك إلا عند من يضره نشره كما يضرّك وينفعه ستره بحسب ما ينفعك ٦

وأعلم أنك تستصحب من الناس أجناساً متفرقة حالاتهم متفاوتة منازلهم ، وكلهم بك إليه حاجة وكل طائفة تسدّ عنك كثيراً من المنافع لا تقوم به من فوقها ، ولعلهم يجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة . ومنهم من تريده للحفظ والأمانة . ومنهم من تريده للشدة والغلظة . ومنهم من تريده للمهنة ، وكل يسدّ مسدّه على حياله . وقد قيل في الحكمة : إن الخلال تنفع حيث لا ينفع السيف . ولا تخلين أحداً منهم — عظم قدره أو صغرت منزلته — من عنايتك وتعهّدك ، بالجراء على الحسنة والمعاينة عند العثرة ، ليعطوا أنهم منك بمرأى ومسمع . ثم لا تجوزن بأحد منهم حدّه ولا تدخله فيما لا يصلح له ، يستقيم لك حاله ويتسق لك أمره ١٥

(١) والعدو — (٤ - ٥) [ وإذا أفضيت . . . على فعلك ] و — (٥) في > مثل من < الأمثال و — (٦) المتجادون و — ولا و — [ لشره ] و — (٧) لشره و — (٨) أصنافا و — (٩) [ و ] كلهم و — (١١) [ ومنهم . . . والأمانة ] و — (١٤) [ منهم ] و — (١٥) عند و — (١٧) يتفق و

وأعلم أن سيمر بك في معاملات الناس حالات تحتاج فيها إلى مُدارة  
 أصناف الناس وطبقاتهم ، يبلغ بك غاية الفضيلة فيها ، وكال العقل والأدب .  
 منها ، أن تسالم أهلها وتملك نفسك عن هواها وتكف عن جحاحها ، بأمر  
 لا يُخرجك في دينك ولا عرضك ولا بدنك ، بل يفيدك عز الحليم وهيبته  
 الوقار . وهي أمور مختلفة تجمعها حال واحدة : منها أن تأتي محفلاً فيه جمع  
 من الناس ، فتجلس منه دون للوضع الذي تستحقه ، حتى يكون أهل الذين  
 يرفعونك فتظهر جلالتك وعظمتك قدرك . ومنها أن يُفيض القوم في حديث  
 عندك منه مثل ما عندهم أو أفضل ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم . فإن  
 نافستهم كنت واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضوك ذلك ، فصرت كأنك  
 ممتن عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك . ومنها أن يتبارى  
 جلساؤك ، والمرأ نتاج اللجاجة وثمره أصلها الحمية ، فإن ضبطت نفسك كان  
 تحاكمهم إليك ومعولهم عليك

وأعلم أن طبع النفوس — إذ كان على حب الملو والغلبة — أن  
 في تركيبها بعض من استطال عليها . فاستدع محبة العامة بالتواضع ومودة  
 الأخلاء بالمؤانسة والاستشارة والثقة والطمأنينة

وأعلم أن الذي تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك ، فالصديق  
 وجه معاملته المسالمة والعدو وجه معاملته المدارة والمواربة ، والمسالمة والمدارة

(١) أنه — مع معاملات — (٢) اختلاف — (٣) لمل الصواب : وتكف  
 من — (٤-٣) بالأمر الذي لا — (٤) عن — (٥) جاعة — (٦) [الذين]  
 — (١٠) تبارى — (١٣) لإذ كان ، صحنا : إن كان — ، إذا كان — .  
 (١٧) [والمواربة] و — [والمسالمة والمدارة] —

هما ضدان يتنافيان "يُفسدُ هذا ما أصلحَ هذا"، وكلما نقصت من أحد البابين زاد في صاحبه، إن قليلٌ قليل وإن كثيرٌ فكثير. فلا تسلم بالمواربة صداقة "ولا تظفرُ بالعدو مع الاستسلام إليه. فضع الثقة موضعها وأقم الحذر مقامه وأسرع إلى التفهم بالثقة ولا تبادر إلى التصديق ولا سيما بالمحال من الأمور

٦ وأعلم أن كل علم بغائب — كأننا ما كان — إنما يُصاب من وجوه ثلاثة لا رابع لها، ولا سبيل لك ولا ليفرك إلى غاية الإحاطات لاستئثار الله بها. ولن تهناً بعيش مع شدة التحرز ولن ينسق لك أمر مع التضييع.

٩ فأعرف أقدار ذلك

فما غاب عنك مما قد رآه غيرك مما يُدرك بالعيان، فسبيل العلم به الأخبار المتواترة التي يحملها الوي والمعدو والصالح والطالح المستفيضة في الناس، فتلك لا كلفة على سامعها من العلم بتصديقها. فهذا الوجه يستوى فيه العالم والجاهل

وقد يجيء خبر أخص من هذا، إلا أنه لا يُعرف إلا بالسؤال عنه والمناجاة لأهله. كقولهم "قلوا خبراً"، ومثلك يحيط علمه أن مثلهم في تفاوت أحوالهم وتباعدٍ من التعارف لا يمكن في مثله التواطؤ، وإن جهل ذلك أكثر الناس. وفي مثل هذا الخبر يمتنع الكذب ولا يتهياً الاتفاق فيه على الباطل

١٨

(١) صلاح هذا ما أفسد هذا — وكلما نقص من أحدهما — (٢) بالمدارة — (٣) فلا — (٤) مكانه — ولا تبادر — (٥) [بنائب] — (٦) غايات — (٧) غايات — (٨) [ما يدرك] — (٩) أصح — (١٠) قلوا خبراً — (١١) علمك يحيط — (١٢) لا يكون — (١٣) ينسج

وقد يحىء خبرٌ أخصُّ من هذا يحمله الرَجُلُ والرَّجُلانِ ممن يجوز  
أن يصدَّقَ ويجوز أن يكذب . فصدِّقْ هذا الخبرَ في قلبك إنما هو بحسنِ  
الظنِّ بالمُخْبِرِ والثِّقَّةِ بِعِدَالَتِهِ . ولن يَقُومَ هذا "الخبر من قلبك ولا قلبَ غيرك"  
مَقَامَ الخبرين "الأولين" . ولو كان ذلك كذلك بَطَلَ التَّصَنُّعُ بِالَّذِينَ وَاسْتَوَى  
الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ مِنَ الْعَالَمِينَ

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يُفْتَشُّ بعضُ الأئمَّاءِ عن  
خِيَانَةِ وبعضِ الصادقين عن كَذِبِ ، "وَأَنَّ مِثْلَ الخبرين الأولين لم يتعقَّب  
النَّاسُ فِي مِثْلِهِمَا كَذِبًا قَطْ ، "عِلْمُ أَنَّ الخبرَ إِذَا جَاءَ مِنْ مِثْلِهِمَا جَاءَ بِحُجَّةٍ  
الْيَقِينِ ، وَأَنَّ مَا عُلِمَ مِنْ خبر الواحد فَإِنَّمَا هو بحسن الظنِّ والاثِّانِ . هذه  
الأخبارُ عن الأمور التي تُدرِكها الأبصارُ

فإنَّما العلمُ بما غابَ ممَّا لا يُدرِكه أحدٌ بعيانٍ ، مثلُ سرائِرِ القلوبِ وما  
أشبهها ، فإنَّما يُدرِكُ علمُها بآثارِ أفعالِها "وبالغالبِ من أُمُورِها على غير  
إِحاطةٍ كإِحاطةِ اللَّهِ بِهَا

"وَأَوَّلُ الْعِلْمِ بِكُلِّ غَائِبٍ الظُّنُّ . وَالظُّنُّونُ إِنَّمَا تَقَعُ فِي الْقُلُوبِ بِالْأَدْلَالِ ،  
فَكَلَّمَا زَادَ الدَّلِيلُ قُوَّةَ الظَّنِّ حَتَّى يَنْتَهَى إِلَى غَايَةٍ تَزُولُ مَعَهَا الشُّكُوكُ مِنْ  
الْقُلُوبِ ، وَذَلِكَ بِكَثْرَةِ الدَّلَائِلِ وَتَرَادُفِهَا

... (١) <لا يجوز > - (٣) [الخبر] - (٤) الأولين <أبداً > -  
(٧) أو مثل - (٨) على - يحىء - على اليقين - (٩) بهذه -  
(١٢) وبالعقاب - (١٤) وأوائل - (١٦) [ولترادفها . . . النائية] -

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة<sup>(\*)</sup>. (فمن عَرَفَ ما طُبِعَ عليه الخلقُ وجرت به عاداتهم وعَرَفَ أسبابَ اتِّصالِهِم واتِّصالِهِ بِهِم وتَفَقَّى عِلَلُ ذلك، كان خَلِيقًا — إن لم يُحِطْ بِعِلْمِ ما في قُلُوبِهِم — أن يقعَ مِنَ الإِحاطَةِ قَرِيبًا

(\*\*\*) وأعلم أن المقاديرَ ربَّما جَرَّتْ بِخِلَافِ ما يُقَدَّرُ الحُكَماءُ، فنالَ بها الجاهلُ في نفسِهِ المُخْتَلِطُ في تَديِيرِهِ، ما لا يَنالُ الحازمُ الأَرِيبُ الحَذَرُ. فلا يَدْعُوكَ ما تَرى مِنَ ذلك إلى التَّضْيِيعِ والاتِّكَالِ على مِثْلِ تلكِ الحالِ، فإنَّ الحُكَماءَ قد أَجْمَعَتْ أَنَّ مَنْ أَخَذَ بِالْحَزْمِ وَقَدَّمَ الْحَذَرَ، نَجَّاتِ الْمَقادِيرُ بِخِلَافِ ما قَدَّرَ، كانَ عِنْدَهُم أَحَدَرًا يَأْيَا وَأَوْجِبَ عُذْرًا مِمَّنْ عَمِلَ بِالتَّغْرِيطِ، وإن اتَّفَقَتْ لَهُ الْأُمُورُ على ما أَرادَ. ولعمري ما يَكادُ ذلكُ يَجِيءُ إِلَّا في أَقَلِّ الْأُمُورِ. وما كَثُرَ نَجْيُهُ السَّلَاماتِ إِلَّا لِمَنْ أَتَى الْأُمُورَ مِنْ وَجْهِها. وإِنَّمَا الْأَشْياءُ بِعَوامِئِها

فلا تَكُونَنَّ بَشْيٌ مِمَّا في يَدِكَ أَشَدَّ ضَرًّا ولا عَلَيْهِ أَشَدَّ حَدَبًا مِنْكَ بِالْأَخْرِ الَّذِي قد بَلَوْتَهُ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فَعَرَفْتَ مَذاهِبَهُ وخَبِرْتَ شَيْئَهُ وصَحَّ لَكَ غَيْبُهُ وَسَلِمَتْ لَكَ نَاحِيَتُهُ. فَإِنَّمَا هُوَ شَقِيقُ رُوحِكَ وَبَابُ

(٢) عليه و — (٣) على ذاك و — (٤-٣) قريبا من الإحاطة و — (٥) [بها]  
 و — (٩) خلاف م — (١٠-١٢) [ولعمري ... بواطنها] م — (١٠) يجيء ذلك  
 و — (١١) [وما كثر ... الأمور] و — (١٣) يدرك و — (١٤) بالسراء م —  
 [عرفت مذهبها] و — واختبرت و — (١٥) شق و

(\*) م ٢٦، ١، ٢٧، ١١ [فمن عرف ... وافقه يوفقك] : انتقل في و إلى

ما على « والواظبة عليه » ٣٦، ٢

(\*\*) واعلم ... للذهب (م ٢٧ س ٧) رواية م ٦



الزَّوْجَ إِلَى حَيَاتِكَ وَمُسْتَعْدَّ رَأْيِكَ . وَتَوَأَّمْ عَقْلَكَ . وَلَسْتَ مُنْتَفِعًا بِعَيْشٍ  
 مَعَ الْوَحْدَةِ وَلَا بَدْءَ مِنْ مُوَاسَسَةٍ . وَكَثْرَةُ الْأَسْتِبدَالِ تَهْجُمُ بِصَاحِبِهِ عَلَى  
 الْمَكْرُوهِ . فَإِذَا صَفَا لَكَ أَخٌ فَكُنْ بِهِ أَشَدَّ ضِيًّا مِنْكَ بِفَنَاسِ أَمْوَالِكَ ، ثُمَّ ٣  
 لَا يُزِيدُكَ فِيهِ أَنْ تَرَى مِنْهُ خُلُقًا أَوْ خُلُقَيْنِ تَكْرَهُهُمَا ، فَإِنَّ نَفْسَكَ الَّتِي هِيَ  
 أَخْصَصُ النَّفْسِ بِكَ لَا تُعْطِيكَ الْمَقَادَةَ فِي كُلِّ مَا تُرِيدُ ، فَكَيْفَ بِنَفْسٍ  
 غَيْرِكَ . وَيَحْسِبُكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنْ أَخِيكَ أَكْثَرُهُ ، وَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاةُ : ٦  
 مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كَلَّةٌ ، وَأَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ . ثُمَّ لَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْتِكَثَارِ  
 مِنَ الْأَصْدِقَاءِ ، فَإِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعَدُّونَ لَكَ يَنْشُرُونَ مُحَاسِنَكَ وَيُحَاجُّونَ  
 عَنْكَ . وَلَا يَحْمِلُكَ اسْتِطْرَافُ صَدِيقٍ ثَانٍ عَلَى مَلَالَةِ الصَّدِيقِ الْأَوَّلِ ، فَإِنَّ ٩  
 ذَلِكَ سَبِيلُ أَهْلِ الْجَهَالَةِ ، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الدَّنَاءَةِ وَسُوءِ التَّدْبِيرِ وَزُهْدِ الْأَصْدِقَاءِ  
 جَمِيعًا فِي إِخَائِكَ ، وَاللَّهُ يُوَفِّقُكَ

وَسَتَجِدُ فِي النَّاسِ مَنْ قَدْ جَرَّبَتْهُ الرِّجَالُ قَبْلَكَ وَخَصَّه اخْتِبَارُهُمْ لَكَ . ١٢  
 فَمَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِالْوَفَاءِ فِي أَوَاقِ الشَّدَةِ وَحَالَاتِ الْفُرُورَةِ فَنَافِسْ فِيهِ وَأَسْبِقْ  
 إِلَيْهِ ، فَإِنَّ اعْتِقَادَهُ أَنْفُسُ الْعُقَدَةِ . وَمَنْ بَلَاهُ غَيْرُكَ فَكُشِفَ عَنْ كُفْرِ  
 النِّعْمَةِ وَالْعَدْرِ عِنْدَ الشَّدَةِ ، فَقَدْ حَذَرَكَ نَفْسَهُ وَإِنْ آتَسَكَ ، وَكَأَنَّ عَدْرَ بَغِيرِكَ ١٥  
 يَغْدِرُ بِكَ . فَإِنَّ مَنْ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ يَنْبَغِي لِلصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ ، وَمَنْ طَبِيعَتُهُ الْعَدْرُ  
 لَا يَدُومُ ، وَإِنَّمَا يَمِيلُ مَعَ الرُّجْحَانِ ، يَذِلُّ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَيَسْتَمَخُ مَعَ  
 الْأُسْتَفْنَاءِ . فَأَحْذَرِ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَذَرِ ١٨

(١) يَوْمَ غَفْلَتِكَ وَ — (٢) الْمَوَاسَسَةُ م — (٣) فَإِنْ م — (٧) لَا يَمْنَعُكَ وَ —  
 (٨) الصَّدِيقُ وَ — (٩) الصَّدِيقُ عَلَى د — (١٠) سُوءٌ وَ : تَفَنُّنٌ د — النَّذِيرُ وَ —  
 الصَّدِيقَيْنِ د — (١١) مُوَفَّقٌ وَ — (١٤) الْعُقْدَةُ وَ — (١٧) لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ د — [يَنْلِ]  
 فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ وَ

- وأعلم أن الحكماء لم تَذُمَّ شيئاً ذَمُّها أربع خلال : الكذب ، فإنه جامع كل شر . وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده .
- ٣ والغضب ، فإنه لؤم وسوء مقدرة . وذلك أن الغضب ثمرة لخلاف ما تهوى النفس ، فإن جاء الإنسان خلاف ما يهوى يمين فوقه أغضى وسمى ذلك حزناً ، وإن جاءه ذلك يمين دونه حمله لؤم النفس وسوء الطبع على الاستطالة .
- ٦ بالغضب والمقدرة بالبسطة . والجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها ، فإنهم لم يجعلوا لصاحب الجزع في مثل هذا عذراً ، لما يتعجل من غم الجزع ، مع عليه بقوت الجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط الشر ، وأن أصل الشر والعسد واحد . وإن افترق فرعاه . وذموا الحسد كذمهم .
- الجزع ، لما يتعجل صاحبه من ثقل الاغتمام وكلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يكون عليه في ذلك شيء . فالحسد اغتمام والعذر لؤم . وقال بعض الحكماء : الحسد خلق دنيء ، ومن دنأته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب . وزعموا أنه لم يغدر غدر قط إلا لصغر همته عن الوفاء وخمول قدره عن احتمال المكار . في جنب نيل المكارم
- ١٥ وبقدر ما ذمَّت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة فكذلك حمّدت أضدادها من الأخلاق ، فأكثر في تفضيلها الأتاويل وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصل لكل كرم وجماع لكل خير ، وأن بها تنال جسام الأمور في الدنيا والدين . فأجعل هذه الأخلاق إماماً لك ومثلاً بين
- ١٨

(١) < قط > س — (٦) بالبطنش س ، العبارة غير مستقيمة ولعل صوابها : « والمقدرة والبسطة على البطنش » — (٧) [ مثل ] س — (٩) العسر س — (١٠) [ ثقل ] س — (١٥) من هذه الأخلاق الثلاثة ☞ — (١٦) الأوائل س — (١٨) في الدين والدنيا س

عينيك وَرُضَ عليها نَفْسَكَ وَحَكِّمها في أَمْرِكَ ، تَقْزُ بِالرَّاحَةِ في  
 °العاجل والسكرامة في الآجل

- ٣ والصَّبْرُ صَبْرَان ، فأعلماها أَنْ تَصْبِرَ °على ما تَرْجُو فيه الغُفْمَ في العاقبة .  
 والحِلْمُ حِلْمَان ، فأشرفهما حِلْمُكَ عَمَّنْ هُوَ دُونَكَ . والصِّدْقُ صِدْقَان ، °أعظمهما  
 صِدْقُكَ فيما يَصْرُكَ . والوَفاءُ وفاءَان ، °أسنأهما وفاءُكَ لِمَنْ لا ترجوه ولا  
 تخافه . فَإِنَّ مَن عُرِفَ بالصِّدْقِ صار النَّاسُ له أَتباعاً ، ومن نُسِبَ إلى الحِلْمِ  
 أُلْبِسَ ثَوْبَ الوَقَارِ والمِهيبةِ وأُبْهَتِ الحِلالةُ ، ومن عُرِفَ بالوفاءِ °استنامت إلى  
 الثقة به الجماعةُ ° ، وَمَنْ °استعزَّ بالصَّبْرِ نال جسيماتِ الأمور . ولَعَمْرِي  
 ما °غَلِطَتِ الحكماةُ حينَ سَمَّتْها أركانَ الدِّينِ والدُّنيا . فالصِّدْقُ والوفاءُ ٩  
 °تَوْأمان والصَّبْرُ والحِلْمُ °تَوْأمان ، °فَينَ تمامُ كُلِّ دينٍ وصلاحُ كُلِّ دنيا ،  
 وأضدادُهم سَبَبُ كُلِّ فُرْقَةٍ وأصلُ كُلِّ فسادٍ

- ١٢ وأحذرْ خَصْلَةً رَأَيْتُ النَّاسَ قد استهانوا بها وَضَيَعُوا النِّظَرَ فيها ، مع اشتغالها  
 على الفساد وقدحِها البغضاء في القلوب والعداوة بين الأوداء : المُفَاخَرَةُ  
 بِالْأَنْسَابِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَغْلُظْ فيها عاقلٌ قَطُّ ، مع اجتماعِ °الإنسِ جميعاً على  
 الصورة وإقرارهم جميعاً بتفريقِ الأمور المحمودة ° < والذمومة > ، من الجلالِ ١٥  
 والتمامة واللؤم والكُرم والجُبْنِ والشجاعة في كُلِّ حين ، وانتقالها  
 من أُمَّة إلى أُمَّة ، ووجودِ كُلِّ محمودٍ ومذمومٍ في أهلِ كُلِّ جنسٍ من الآدميين .

---

(٢) العاجل < والآجل > ٢ — (٣) في كل ما تَرْجُو ٢ — (٤) فأعظمهما ٢ —  
 (٥) أسنأهما ٢ — (٦-٨) استقامت بالثقة به الجماعة ٢ — (٨) استعان ٢ —  
 (٩) غلطت < فيها > ٢ — (١٠) تَوْأمان ٢ (مرتين) — (١٠) منهن ٢ —  
 (١٤) الألسن ٢ — (١٥) < والذمومة > ، أضفنا : [ ٢ ] ٢

وهذا غير مدفوع عند الجميع . فلا تجعل له من عَقَلِك نصيباً ولا من لسانك حظاً ، نسلم بذلك على الناس أجمعين . مع السلامة في الدين

٣ (\*) وأعلم أنك موسومٌ بسياً من قارنتَ ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ من صاحبتَ ، فتحرّز من دُخلاء السوء ومجالسة أهل الریب . وقد جرّت لك في ذلك الأمثال وسطّرت لك فيه الأقاويل ، فقالوا : المرء حيثُ يجعلُ نفسه . وقالوا : يُظنُّ بالمرء ما يُظنُّ بقرينه . وقالوا : المرء بشكله والمرء بأليفه . ولن تتدرّ على التحرّز من جماعة الناس ، ولكن أقلّ الموانسة إلا بأهل البراءة من كل دَس

٩ وأعلم أن المرء بقدر ما يسبقُ إليه يُعرف وبالمستفيض من أفعاله يوصف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من خلافه ألقاهُ الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره . فأجهد أن يكون أغلبُ الأشياء على أفاعيلك ما تحمّده العوامُ ولا تدّئه الجماعاتُ ، فإن ذلك يُعقِّ على كلّ خللٍ إن كان . فبادرْ ألسنة الناس فأشغلها بحاسنك فإنهم إلى كلّ شيءٍ سراعٌ . وأستظهر على من دونك بالفضل وعلى نظرائك بالإنصاف وعلى من فوقك بالإجلال ، تأخذُ بوثائق الأمور وأزمة التدبير

١٥ وأعلم أن كثرة العتاب سببٌ للقطيعة وإطراحه كله دليلٌ على قلة

- 
- (١) تجعل و — (٢) فتسلم و — (٤) السوء < وأظهر > مجازية و —  
 (٥) [لك] م — (٦) ما ظن و — بشكليه و — (٧) جماعات و ، [جماعة] م —  
 (١٠) أفعاله و — (١١) عليك أفاعيلك كما و ، على أفعالك ما م — (١٣) دس م —  
 (١٤) [وعلى نظرائك] و — < كل > من م
-

الاكثرات بأمر الصديق ، فكُنْ فيه بين أمرين : عاتِبْه فيما تشتركان في  
نفعه وضرره . وذلك في التهنات ، وتجنّاف له عن بعض غفلاته تسلم لك  
ناحيته . وبحسب ذلك فكُنْ في زيارته ، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب  
بالهواء وربما أورث اللالة ، وطول المجتران يُعقِبُ الجفوة . ويجعل عقدة  
الإخاء ويجعله صاحبه مدرجة للقطيعة . وقد قال الشاعر :

إذا ما شئت أن تسلي حبيباً فأكثر دونه عدد الليالي  
فما يسلي حبيبك مثل نأي ولا يبلي جديداً كابتذال<sup>٦</sup>

وأقتصد في مزاحك ، فإن الإفراط فيه يذهب بالهواء . ويجرئ عليك  
أهل التّناءة ، وإن التقصير فيه يقبضُ عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا  
تمزح بالذي يسوء معاشرتك

وأنا أوصيك بخلق قل من رأيت يتخلق به ، وذلك أن محمله شديد ومزقه  
صعب ، وبحسب ذلك يورث الشرف وحيد الذكر : ألا يحدث لك انحطاط<sup>١٢</sup>  
من حطت الدنيا من إخوانك استهانة به ولا لحقه إضاعة . ولما كنت  
تعلم من قدره استصغاراً ، بل إن زدت قليلاً كان أشرف لك وأعطف  
للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلاً وإثارة له<sup>١٥</sup>  
على نظرائه في الحفظ والإكرام ، بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من  
ذامك وكان هو أولى بالتمتعف عليك . إلا أن يكون مسلطاً تخاف شذاته

(١) إلا من — (٢) الهينات — (٣) اللال و — (٤) درجة — (٥) كاجتال :  
(٦) فإسلي . . . كاجتال :

وزر غبا إذا أحبت خلا فحظي بالوداد مع اتصال و  
(٨) واقصد و — (٩) عنه و — (١٠) إلا بالذي يسر و — (١٣) [ به ] و . —  
(١٤) تعرف و — [ قليلاً ] و — [ لك ] و — (١٧) شذاه و

ومَعَرَّتْهُ وترجوعه عندَه جَرَّ منفعة لصديق أو دَفَعَ مضرة عنه أو كَبَتَا لعدو وإنزال هوان به . فَإِنَّ السُّلْطَانَ وَخِيَلَاءَهُ وَزُهوَهُ يُحْتَمَلُ فِيهِ مَا لَا يَجُوزُ فِي غَيْرِهِ وَيُعْذَرُ فِيهِ مَا لَا يُعْذَرُ فِي سِوَاهِ ٣

وَأَعْلَمُ أَنَّ نَشْرَ محاسنِكَ لَا يَلِيقُ بِكَ وَلَا يُقْبَلُ فِيكَ ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْقَوْلُ لَهَا عَلَى أَلْسِنِ أَهْلِ الرُّوَاءِ وَذَوَى الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ ، وَمَنْ يَنْجَعُ قَوْلُهُ فِي الْقُلُوبِ ، مِمَّنْ يُسْتَنَامُ إِلَى قَوْلِهِ وَيُصَدَّقُ خَبَرُهُ ، وَمِمَّنْ إِنْ قَالَ صَدَقَ أَوْ مَدَحَ اقْتَصَدَ ، يَثْنِي بِقَدْرِ الْبَلَاءِ ، فَإِنْ إِسْرَافَ الثَّنَاءِ عَلَى قَدْرِ النِّعْمَةِ يُولِّدُ فِي الْقُلُوبِ التَّكْذِيبَ وَيَذِلُّ عَلَى طَلَبِ التَّزَايُدِ . فَأَمَّا ثَنَاءُ الْمَادِحِينَ لَكَ فِي وَجْهِكَ ، فَأَمَّا تِلْكَ أَسْوَاقُ أَتَامُوهَا لِلْأَرْبَاحِ وَسَاهَلُوكَ فِي الْمُبَايَعَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ كَلْفَةٌ ، لِكِسَارِ أَتَاوِيلِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ . وَأَوَّلُكَ الصَّادُونَ عَنْ طُرُقِ الْمَكَارِمِ وَالْمُتَبَطِّطُونَ عَنْ ابْتِنَاءِ الْعَالِي . فَارْتَدَّ لِنِعْمِكَ مَعْرِسًا تَنْمُو فِيهِ فُرُوعُهَا وَتَزْكُو ثَمَرَتُهَا ، لَا تَذْهَبُ نَفَقَتُكَ ضَيَاعًا ، إِنَّمَا لِعَاجِلِ تَقَدُّمِهِ أَوْ لِأَجْلِ ثَنَاءِ تَنْتَفِعُ بِهِ ١٣

وَلَنْ تَعْدَمَ أَنْ يَفْجَأَكَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِكَ حَقُوقٌ تَهْطُكُ وَأَحْوَالٌ تَفْدُحُكَ وَأُمُورٌ كُلُّهَا تَقْسَمُ عَيْنَايَكَ وَفِي التَّثَبُّتِ فِي مِثْلِهَا تُعْرِفُ فَضِيلَتَكَ . فَلَا تَسْتَقْبِلْهَا بِالتَّضَجُّعِ وَتَغْيِينِ الرَّأْيِ ، وَأَبْدَأْ مِنْهَا بِأَعْظَمِهَا مَنَفْعَةً وَأَشَدَّهَا خَوْفَ ضَرَرٍ ، وَكُلِّ مَا أَهْجَزَكَ إِلَى السَّكْفَةِ وَأَعْذَرَ مِنْ تَقْصِيرٍ إِنْ كَانَ ، فَإِنَّ الْاعْتِذَارَ يَكْسِرُ حُمَى الْإِلَامَةِ وَيُرَدِّعُ شِدَادَةَ الشِّرَّةِ . ثُمَّ تَلَّافَ بَعْدَ انْكِسَارِ ذَلِكَ عَنْكَ مَا فَاتَكَ ١٨

(١٣-٤) [واعلم... تنتفع به] و — (٨) التزايد ، صحنا : التزايد و —

فأثناء و — (١٤) وأشغال و — (١٥) عليك و — (١٦) ولا و — وتغير و — قاب و — (١٨) فإن المنز يكسر حياء و — (١٩) الانكساف و — [عنك ما فاتك] و

- وأجهد الجهد كله أن تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلة موصولة لأصحابها ببشرى وطلاقة وجهك ، فقد زعمت الحكماء أن القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوب ذوى المروءات من الكثير مع العيوس والانتقاض . ٣
- \* وقد قال بعض الحكماء غاية الأحرار أن يلقوا ما يحبون ويحرموا أحب إليهم من أن يلقوا ما يكرهون ويعطوا . \* وما أبدؤا من الحق
- ولا يدعونك كفر كافر لبعض نعمك ممن آثر هواه على دينه ومروءته ٦
- \* أو غدر غادر تصنع لك وختلك عن مالك ، أن تزهد في الإنعام وتسيء بثقاتك الظنون . فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله الدريعة إلى استفساد الطبائع وتعطيل المكارم
- وأعلم أن استصغارك نعمك يكثرها عند ذوى العقول . وستترك لها نشرها لها عندهم . فأنتشرها بسترها وكبرها باستصغارها
- وأعلم أن من الفعل أفاعيل وإن عطلت منافعها ومنافع أضدادها فلا يثارها ١٢
- فضيلة على كل حال . فأجعل صمتك أكثر من كلامك ، فإنه أدل على حكمتك . وأجعل عفوك أكثر من عقوبتك ، فإن ذلك أدل على كرمك . ولا تفرطن فيه كل الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه والتأديب في أوانه ١٥
- وأعلم أن لكل امرئ سيدها من عمله ساهلته فيه نفسه وسلس له فيه هواه . فتحفظ ذلك من نفسك وتقاضها الزيادة فيه ورؤضا على تشهيره والمواظبة عليه (\*)

(٢) لاصحابك — (٤-٥) [وقد قال ... وسطوا] و — (٥) [وما أبدؤا من الحق] — (٧) أو عنده — (٩) الضنائع و — (١٠) يكثرها — (١١) وكثرها — (١٢) الأفاعيل أفاعيل و — فلا يثار لها و

(\*) يتلو في الفصل العاشر إليه في تليقة ص ٢٦

وَأَحْذَرِ الْحَذَرَ كُلَّهُ الْإِغْتِرَارَ بِأُمُورِ ثَلَاثَةٍ ، فَإِنَّ مَن عَطَبَ بِهَا  
 كَثِيرٌ وَتَلَاَفِيهَا صَعِبٌ شَدِيدٌ : أَحَدُهَا أَنْ لَا تُؤَلِّيَ جِسَامَ تَصَرُّفِكَ ، وَتَقْلُدْ مُهْمَ  
 ٣ أَمُورِكَ وَوَثَائِقَ تَبْدِيرِكَ ، إِلَّا أَسْرَعَ صِلَاخُهُ مَوْصُولٌ بِصِلَاخِكَ ، وَبَقَاءُ النِّعْمَةِ  
 عَلَيْكَ هُوَ بَقَاءُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ . وَأَنْ لَا تَأْنَسَ أَوْ تَغْتَبِرَ بِمَنْ تَعْلَمُ أَنَّ بِصِلَاخِكَ  
 فِسَادَهُ ، وَبَارْتِفَاعِكَ انْخِطَاطَهُ ، وَبِسَلَامَتِكَ عَطْبُهُ ، فَإِنَّ مَن كَانَ هَكَذَا فَانَتْ  
 ٦ مَلَكُ مَوْتِهِ ، فَيَحْسَبُ ذَلِكَ فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ . وَأَنْ تَجْعَلَ مَالَكَ كُلَّهُ فِي عُقْدَةٍ  
 وَاحِدَةٍ أَوْ حَيْزٍ وَاحِدٍ ، أَوْ وَجْهِ مُنْفَرِدٍ إِنْ اجْتَنَحَتْ جَانِحَةٌ أَوْ نَابَتْهُ  
 نَائِبَةٌ بِقِيَمَتٍ حَسِيرًا . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : فَرَّقُوا النِّيَّةَ ، وَأَطْلَبُوا الْأَرْبَاحَ  
 ٩ بِكُلِّ شَيْءٍ

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي ذَمَّتْهَا الْحُكَمَاءُ خَلْقٌ إِلَّا وَقَدْ يَنْفَعُ فِي  
 بَعْضِ الْحَالَاتِ ، وَيُرَدُّ بِهِ شَكْلُهُ ، وَيَقَامُ بِإِزَاءِ مِثْلِهِ ، وَيَدَافَعُ بِهِ نَظِيرُهُ .  
 ١٢ إِنَّكَ سَتَمُنَى بِصُحْبَةِ السُّلْطَانِ الْحَازِمِ الْعَادِلِ ، وَبِصُحْبَةِ السُّلْطَانِ الْأَخْرَقِ  
 الْجَهُولِ الْقَشُومِ ، فَالْحَازِمُ الْعَادِلُ يَسُوسُهُ لَكَ الْأَدَبُ وَالنُّصْحُ ، وَالْأَخْرَقُ يُسُوسُهُ  
 لَكَ الْحِيلَةُ وَالرِّفْقُ . الْعَادِلُ يَعْضُدُّكَ مِنْهُ ثَلَاثٌ ، وَتَصْبِرُ نَفْسُهُ لَكَ عَلَى ثَلَاثٍ ،  
 ١٥ فَالْوَأَقَى يَعْضُدُّكَ : تَسْلِيْطُ الْعَدْلِ وَإِنْفَاذُ الْحُكُومَةِ — وَفِي ذَلِكَ صِلَاخُ الرِّعْيَةِ —  
 وَإِثَابَةُ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ إِثَابَتُهُمْ تَحْصِيْنُ التَّبِيضَةِ وَالسُّبُلِ ، وَالْعَفْوُ مَا بُلِّغَ بِهِ  
 الْإِسْتِصْلَاحُ ، وَاكْتَفَى بِهِ مِنَ الْبَسْطِ . وَالْوَأَقَى تَصْبِرُ نَفْسُهُ لَكَ عَلَيْهِنَ الْهَوَى

(٢) [لا] س — تقليد ٢ — (٣) الى من س — (٣-٤) وبقاء النعمة عليه هو بقاء  
 النعمة عليك س — (٤) وإن تأنس س — (٦) وإن تعجل ، صحننا : أو أن تعجل ٢ س —  
 (٧) أو [وجه منفرد] <و> ان ٢ — (١٠) واعلموا ٢ — (١١) ويرده شكله  
 ويقام ٢ — (١٢-١٣) [أنك ستمنى ... النصحاء] س — (١٧) لعل الصواب :  
 البطش ؟



<... ..> إلى ما وافق الرأي وأمضى الرأي إلا بعد التثبت

حتى تعاونه عليه التصحاء

- ٣ "ولكني أوصيك برياضة نفسك حتى تذللها على الأمور المحمودة ، فإنّ  
 "كل أمر ممدوح هو مما تستقلّ النفوس ، ومما تسرّ به وتقلب إليه الأخلاق  
 المذمومة . فإن أهملتها وإياها غلبت عليك لأنها فيها طبيعة مركبة وجبلة  
 مفطورة . فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلب عليك من المعاصرة والحلم أولى  
 بك من العجلة والصبر الحاكم عليك دون العجز والعفو أسبق إليك من  
 الجزاة بالنزوب والمكافأة بالسوء ، وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة  
 فلتكن محموداتها غالباً على أفعالك مُحكّمة في أمورك . فإنك إن ضبطت  
 ذلك وقومت عليك نفسك عشت رخيّ البال قليل الهم كثير  
 الصديق قليل العدو سليم الدين نقيّ العرض محمود الفعال جميل  
 الأحذوثة في حياتك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يصل الله لك  
 السلامة الآجلة بالنعمة العاجلة"

أَسْأَلُ اللَّهَ الْمُبْتَدِئَ بِكُلِّ نِعْمَةٍ وَالْمَوْلَى لِكُلِّ إِحْسَانٍ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ

- ١٥ خَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ وَصِفُوهُ مِنْ بَرِيَّتِهِ ، وَأَنْ يُتِمَّ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ وَيَشْفَعَكَ لَكَ

(١) <... ..> : سقط في الأصل — (٣) ولكن —

(٤) كان امر — هو ما — [ومما تسر... للذمومة] — (٥) عليك لأفيا

طبيعة [مركبة] — (٨-٩) [وكذلك سائر... في أمورك] — (١٠) ذلك ...

عليك] — الموم — (١١) [سليم... الفعال] — (١٢) ترجو —

(١٣) الكرامة — العاجلة > لأن شاء الله عز وجل < — (١٥) يتم —

ما خولك من نعمته بالنعمة التي يؤمنُ معها الزوالُ في جِواره ومُرافقة أنبيائه ،  
 \*والسلام عليك ورحمةُ الله\* (\*)

---

(١) نعمه و — (٢) ضل الله عليهم أجمعين و

---

(\*) تمت الرسالة في الأخلاق الحميدة والمذمومة بعون الله ومنه والله الموفق للصواب  
 والمحمد لله أولا وآخرا وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه يتلو هذه الرسالة إن  
 شاء الله تعالى « كتاب كتان السر وحفظ اللسان » من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ  
 أيضا والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته ، تمت الرسالة في كتان السر وحفظ اللسان (١)  
 من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله والله المحمود على ذلك كثيرا برحمته و

## كتاب كتان السر وحفظ اللسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣

- أما بعدُ ، فَإِنِّي تَصَفَّحْتُ أَخْلَاقَكَ وَتَدَبَّرْتُ أَعْرَافَكَ وَتَأَمَّلْتُ شَيْئَكَ ،  
وَوَزَنْتُكَ فَعَرَفْتُ مَقْدَارَكَ وَقَوَّمتُكَ فَعَلِمْتُ قِيَمَتَكَ ، فَوَجَدْتُكَ قَدْ نَاهَزْتَ  
الْكَمَالَ وَأَوْفَيْتَ عَلَى التَّامِّ وَتَوَقَّلْتَ فِي دَرَجِ الْفَضَائِلِ ، وَكِدْتَ تَكُونُ  
مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ وَقَارِبَتَ أَنْ تُلْقَى عَدِيمَ النَّظِيرِ ، لَا يَطْمَعُ فَاضِلٌ أَنْ  
يَقُوتَكَ وَلَا يَأْنِفُ شَرِيفٌ أَنْ يُقَصِّرَ دُونَكَ وَلَا يَخْشَعُ عَالِمٌ أَنْ يَأْخُذَ عَنْكَ .  
وَوَجَدْتُكَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ تَضْيِيعٍ وَإِهْمَالٍ لِأَمْرَيْنِ هُمَا الْقُطْبُ الَّذِي  
عَلَيْهِ مَدَارُ الْفَضَائِلِ ، فَكُنْتَ أَحَقَّ بِالْعَدْلِ وَأَقْنَّ بِالتَّأْنِيبِ ، مِمَّنْ لَمْ يَسْبِقْ  
شَاؤُكَ وَلَمْ يَتَسَنَّ رُبَّتُكَ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مَلُومًا عَلَى تَضْيِيعِ الْقَلِيلِ مَنْ قَدْ أَضَاعَ  
الْكَثِيرَ وَلَا يَهْتَمُّ بِإِصْلَاحِ يَوْمِهِ وَتَقْوِيمِ سَاعَتِهِ مَنْ قَدْ اسْتَحْوَذَ الْفَسَادُ عَلَى  
دَهْرِهِ وَلَا يُحَاسِبُ عَلَى الزَّلَّةِ الْوَاحِدَةِ مَنْ لَا يُعَدُّ مِنْهُ الزَّلَلُ وَالْعِثَارُ وَلَا  
يُنْكِرُ الْمُنْكَرُ عَلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرُوفِ ، لِأَنَّ الْمُنْكَرَ إِذَا كَثُرَ صَارَ  
مَعْرُوفًا ، وَإِذَا صَارَ الْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا صَارَ الْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا . وَكَيْفَ يُعْجَبُ بِمَنْ  
أَمْرُهُ كُلُّهُ عَجَبٌ . وَإِنَّمَا الْإِنْكَارُ وَالتَّعَجُّبُ بِمَنْ خَرَجَ عَنْ تَجَرُّي  
الْعَادَةِ وَفَارَقَ السُّنَّةَ وَالسَّجِيَّةَ ، كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ : خَالِفٌ تُذَكَّرُ ، وَقِيلَ :

الكاملُ من عُدَّتْ سَقَطَاتُهُ ، وقيل : من استوى يَوْمَاهُ فهو مغبون ومن كان  
يَوْمُهُ خَيْرًا من غَدِهِ فهو مفتون ومن كان غَدُهُ خَيْرًا من يَوْمِهِ فذلك السعيدُ  
المغبوط . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رَأَيْتَكَ أُمْسِرَ خَيْرَ بَنَى مَعَدٍ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرُ مَنْكَ أُمْسِرِ  
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ خَيْرًا كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدٍ شَمْسِ  
وقال آخرُ في معنى :

أَنْتَ أَمْرٌ هُكَّ الْمَعَالِي وَدَلُّهُ مَعْرُوفُكَ الرَّبِيعُ  
وَأَنْتَ مِنْ وَائِلٍ صَبِيمٍ كَالْقَلْبِ تَحْيَى بِهِ الضُّلُوعُ  
فِي كُلِّ عَامٍ تَزِيدُ خَيْرًا يُشْمِعُهُ عَنْكَ مَنْ يُشْمِعُ

وَأَلْأَمْرَانِ اللَّذَانِ تَقِمَّتُهُمَا عَلَيْكَ : وَضَعُ الْقَوْلِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَإِذَاعَةُ السِّرِّ  
بِإِذَاعَتِهِ . وليس الخطرُ فيما أَسَوْمُكَ وَأَحَاوِلُ حَمَلِكَ عَلَيْهِ بِسَهْلٍ وَلَا يَسِيرٍ . وكيف  
وَأَنَا لَا أَعْرِفُ فِي دَهْرِي — عَلَى كَثِيرٍ عَدَدِ أَهْلِهِ — رَجُلًا وَاحِدًا مِمَّنْ يَنْتَحِلُ  
الْخَاصَّةَ وَيُنْسِبُ إِلَى الْعِلْيَةِ وَيَطْلُبُ الرِّيَاسَةَ وَيَخْطُبُ السِّيَادَةَ وَيَتَحَلَّى  
بِالْأَدَبِ وَيُدِيمُ الثَّخَانَةَ وَالزَّمَانَةَ وَالْحِلْمَ وَالنَّخَامَةَ ، أَرْضَى ضَبْطُهُ  
لِللَّسَانِ وَأَحْمَدُ حَيَاطَتِهِ لِسِرِّهِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَصْعَبُ مِنْ مُكَابَدَةِ  
الطَّبَائِعِ وَمُعَالَجَةِ الْأَهْوَاءِ ، فَإِنَّ الْبَتُولَةَ لَمْ تَزَلْ لِلْهَوَى عَلَى الرَّأْيِ طَوْلَ الدَّهْرِ ،  
وَالْهَوَى هُوَ الدَّاعِيَةُ إِلَى إِذَاعَةِ السِّرِّ وَإِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِفَضْلِ الْقَوْلِ . وَإِنَّمَا  
سُمِّيَ الْعَقْلُ عَقْلًا وَحِجْرًا — قَالَ اللَّهُ تَعَالَى هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ —  
لأنَّهُ يَرْزُمُ اللِّسَانَ وَيَخْطُمُهُ وَيَسْكُلُهُ وَيَزِينُهُ وَيَقَيِّدُ الْفَضْلَ وَيَعْقِلُهُ عَنْ أَنْ

- يَمْنَعِي فُرْطَا فِي سَبِيلِ الْجَهْلِ وَالْخَطَا وَالْمُضَرَّةَ ، كَمَا يُعْقَلُ الْبَعِيرُ وَيُحْجَرُ عَلَى الْيَتِيمِ . وَإِنَّمَا اللِّسَانُ تَرْجُمَانُ لِلْقَلْبِ وَالْقَلْبُ خِزَانَةُ مُسْتَحْفَظَةٌ لِلْخَوَاطِرِ وَالْأُمُورِ ، وَكُلُّ مَا يَمْنَعِي ذَلِكَ عَنِ الْخَوَاسِّ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَمَا تُؤَلِّدُهُ الشَّهَوَاتُ ٣ وَالْأَهْوَاءُ وَتَنْتُجُهُ الْحِكْمَةُ وَالْعِلْمُ . وَمِنْ شَأْنِ الصَّدْرِ — عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ وَعَاءٌ لِلْأَجْرَامِ ، وَإِنَّمَا يَمْنَعِي بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادُ كَيْفَ هُوَ — أَنْ يَضِيقَ بِمَا فِيهِ وَيَسْتَنْقِلَ مَا حَمَلَ مِنْهُ ، فَيَسْتَرْجِعَ إِلَى نَبْذِهِ وَيَلْذَّ إِقْلَاءَهُ عَلَى اللِّسَانِ ، ٦ ثُمَّ لَا يَسْكَادُ أَنْ يَشْفِيهِ أَنْ يُخَاطَبَ بِهِ نَفْسُهُ فِي خَلَوَاتِهِ حَتَّى يُفَضَى بِهِ إِلَى غَيْرِهِ يَمْنَعِي لَا يَرَعَاهُ وَلَا يَحُوطُهُ ، كُلُّ ذَلِكَ مَا دَامَ الْهَوَى مُسْتَتَوِيًّا عَلَى اللِّسَانِ وَاسْتَعْمَلَ فَضُولَ النَّظَرِ فَذَعَتْ إِلَى فَضُولِ الْقَوْلِ ٩
- فَإِذَا قَهَرَ الرَّأْيُ الْهَوَى فَاسْتَوَلَى عَلَى اللِّسَانِ مَنَعَهُ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ وَرَدَّهُ عَنْ تِلْكَ الدُّرْبَةِ وَجَسَّمَهُ مَوْئِنَةَ الصَّبْرِ عَلَى سِتْرِ الْحِلْمِ وَالْحِكْمَةِ . وَلَا شَيْءَ أُعْجِبُ مِنْ أَنَّ الْمُنَطِقَ إِحْدَى مَوَاهِبِ اللَّهِ الْعِظَامِ وَنِعْمَةِ الْجِسَامِ ، وَإِنَّ صَاحِبَهَا ١٢ مَسْئُولٌ عَنْهَا وَمَحَاسَبٌ عَلَى مَا خُوِّلَ مِنْهَا ، أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ اسْتِعْمَالَهَا فِي ذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ وَالْقِيَامِ بِقِسْطِهِ وَحُجَّتِهِ وَوَضْعِهَا مَوَاضِعَ النِّفَعِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْإِنْفَاقِ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ لِقِطَّةً لِقِطَّةً وَصَرَفَهَا عَنْ أَضْدَادِهَا . فَلَمْ ١٥ يَرْضَ الْإِنْسَانُ أَنْ عَطَّلَهَا عَمَّا خُلِقَتْ لَهُ مِمَّا يَنْفَعُهُ حَتَّى اسْتَعْمَلَهَا فِي ضِدِّ ذَلِكَ مِمَّا يَضُرُّهُ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ الَّذِي أَجْتَمَعَ عَلَى صَاحِبِ الْمَالِ الَّذِي كَنَزَهُ وَمَنَعَهُ مِنْ حَقِّهِ ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ إِثْمُ الْمَنْعِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَصْرِفْهُ فِي مَعْصِيَةٍ ، ١٨ ثُمَّ صَرَفَهُ فِي أَبْوَابِ الْبَاطِلِ وَالْفِسْقِ ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ إِثْمُ الْإِنْفَاقِ مِنْهَا : وَهَذِهِ غَايَةُ الْقَبْلِ وَالْخُسْرَانِ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا

فاللسان أداة مُستعملة لا حمد له ولا ذمّ عليه ، وإنما الحمد  
للحلم واللوم على الجهل ، فالعلم هو الاسم الجامع لكلّ فضل وهو سلطان  
٣ العقل القامع للهوى . فليس قمع الغضب . وتسكين قوّة الشرّ وإسقاط  
طائر الخرق بأحقّ بهذا الاسم ولا أولى بهذا الرّسم من قعر فرط  
الرضا وغلبة الشهوات والمنع من سوء الفرح والبطر ومن سوء الجزع  
٦ والهلل وسرعة الحمد والذمّ وسوء الطبع والجشع وسوء مُناهضة  
الفرصة وفرط الحرص على الطليّة وشدة الحنين والرفقة وكثرة الشكوى  
والأسف وقرب وقت الرضا من وقت السخط ووقت السخط من وقت  
٩ الرضا ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزنٍ معلوم ولا تقدير  
موصوف وفي غير نفع ولا جدوى

وأعلم يقيناً أنّ الصمت سرّمدٌ أبداً أسهلّ مرّاماً — على ما فيه من  
١٢ المشقة — من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز والقصد  
للصواب ، لما قدّمنا ذكره من علة مجاذبة الطباع ولأنّ من طمع  
الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجيلة التي جيل عليها  
١٥ الناس نُقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين < و > عن الغائب إلى  
الشاهد ، وأحبّ الناس أن يُنقل عنهم ونقشوا خواطيرهم في الصُخور وأحتالوا  
لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجة الله على من لم يُشاهد  
١٨ مخارج الأنبياء ولم يحضر آيات الرسول . وقام بجيء الأخبار عن غير تشاعر  
ولا نواطىء مقام العيان ، وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات

- والقلامات ، وصار ما ينقله الناسُ بعضهم عن بعضٍ ذريعةً إلى قبولِ الأخبارِ  
عن الرُّسلِ وسُلَمًا إلى التصديقِ وعَوْنًا على الرِّضا بالتقليدِ . ولولا حلاوةُ  
الإخبارِ والاستِخبارِ عندَ الناسِ لَمَا انتقلتِ الأخبارُ وحَاثَ هذا اللَّحَلُ . ٣  
ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حَبَّبَهَا إِلَيْهِمْ لهذا السَّبَبِ ، كما جَعَلَ عِشْقَ النِّسَاءِ داعيةً  
للِّجَمَاعِ وَلَذَّةَ الْجَمَاعِ سبيلًا للنَّسْلِ والرِّقَّةِ على الوَلَدِ عَوْنًا على التَّربِيَةِ  
والْحَضَانَةِ وبهِنَّ كَانِ النُّشُوءُ والنَّمَاءُ ، وَحُبُّ الطَّعَامِ والشَّرَابِ سببًا ٦  
للغذاءِ والغذاءِ سببًا للبقاءِ وعمارةِ الدُّنْيَا

- فَعَسَّرَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْكِتْمَانُ لِإِيثارِ هَذِهِ الشَّهْوَةِ وَالْإِنْقِيَادِ لِهَذِهِ  
الطَّبِيعَةِ ، وَكَانَتْ مَزَاوِلُهُ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ عَنْ قَوَاعِدِهَا أَسْهَلَ مِنْ مَجَادِبَةِ ٩  
الطَّبَاعِ . فَاعْتَرَاهُ الْكَرْبُ لِكِتْمَانِ السِّرِّ وَعَشِيَهُ لَذَلِكَ سُمٌّْ وَكَمْذٌ يُحْسِئُ  
لَهُ فِي سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ بِمِثْلِ دَيْبِ النَّمْلِ وَحِكْمَةِ الْجَرَبِ وَمِثْلَ لَسَعِ  
الدَّبَرِ وَوَحْزِ الْأَشْفَاقِ ، عَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِ مَقَادِيرِ الْحُلُومِ وَالرَّزَاقَةِ وَالْخَلْفَةِ . ١٢  
فَإِذَا بَاحَ بِسَرِّهِ فَكَأَنَّهُ أَنْشَطَ مِنْ عِقَالٍ . وَلِذَلِكَ قِيلَ : الصَّدْرُ إِذَا نَفَثَ بَرَأً ،  
مِثْلًا مَضْرُوبًا لِهَذِهِ الْحَالِ . وَقِيلَ :

- \* وَلَا بَدْءَ مَنْ شَكُوهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبِيرٌ \* ١٥  
وَلَيْسَ قَوْلُنَا : طُبِعَ الْإِنْسَانُ عَلَى حُبِّ الْإِخْبَارِ وَالْأَسْتِخْبَارِ ، حُجَّةً لَهُ  
عَلَى اللَّهِ ، لِأَنَّهُ طُبِعَ عَلَى حُبِّ النِّسَاءِ وَمُنْعِ الزِّنَا وَحُبِّ إِلَيْهِ الطَّعَامِ وَمُنْعِ مِنَ  
الْحَرَامِ ، وَكَذَلِكَ حُبُّ إِلَيْهِ أَنْ يُخْبَرَ بِالْحَقِّ النَّافِعِ وَيَسْتَخْبَرَ عَنْهُ ، وَجَعَلَتْ فِيهِ ١٨  
اسْتَطَاعَةُ هَذَا وَذَلِكَ ، فَاخْتَارَ الْهَوَى عَلَى الرَّأْيِ

ومما يؤكد هذا المعنى في كَرَبِ السَّكِينِ وَصُوعِيَّتِهِ عَلَى الْعُقْلَاءِ فَضْلًا  
 عَنْ غَيْرِهِمْ مَا رَوَاهُ عَنْ بَعْضِ قَهَّائِهِمْ أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ أَخْبَارًا مَسْتَوْرَةً  
 لَا يَحْتَمِلُهَا الْقَوْمُ ، فَضَاقَ صَدْرُهُ بِهَا ، فَكَانَ يَبْزُرُ إِلَى الْعَرَى فَيَحْتَفِرُ بِهَا  
 حَفِيرَةً يُودِعُهَا دَنًا ثُمَّ يَنْكَبُ عَلَى ذَلِكَ الدَّنِّ فَيَحْدُثُهُ بِمَا سَمِعَ فَيُرْوِّحُ عَنْ  
 قَلْبِهِ وَيَرَى أَنْ قَدْ نَقَلَ سِرَّهُ مِنْ وَعَاهُ إِلَى وَعَاهُ

وكان الأعمشُ سَيِّئَ الْخُلُقِ غَلِقًا ، وكان أصحابُ الحديثِ يُضْجِرُونَهُ  
 وَيَسُوْمُونَهُ نَشْرًا مَا يَحِبُّ طَيْبُهُ عَنْهُمْ وَتَكَرَّرَ مَا يَحْدُثُهُمْ بِهِ وَبِتَعَدُّتُونَهُ ، فَيَحْلِفُ  
 لَا يَحْدُثُهُمْ الشَّهْرَ وَالْأَكْثَرُ وَالْأَقَلُّ . فَإِذَا قَعَلَ ذَلِكَ ضَاقَ صَدْرُهُ بِمَا  
 فِيهِ وَتَطَلَّعَتِ الْأَخْبَارُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَيُقْبَلُ عَلَى شَاةٍ كَانَتْ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ ،  
 فَيَحْدُثُهَا بِالْأَخْبَارِ وَالْفَقْهِ ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَقُولُ : لَيْتَ أَتَى  
 كَفْتُ شَاةَ الْأَعْمَشِ

وَشَكَاهُ شَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَا يَجِدُ مِنْ فَقْدِ الْأُنَيْسِ الْمَأْمُونِ عَلَى سِرِّهِ ،  
 فَقَالَ : أَكَلْتُ الْحُلُومَ وَالْحَامِضَ حَتَّى مَا أَجِدُ لَهَا طَعْمًا ، وَأَتَيْتُ النِّسَاءَ حَتَّى  
 مَا أَبَالِي امْرَأَةً لَقِيتُ أُمَّ حَائِطًا ، فَمَا بَقِيتُ لِي لَذَّةٌ إِلَّا وَجُودَ آخِرِ أَضْعُ بَيْتِي وَبَيْنَهُ  
 مَوْوَنَةُ التَّحْقُظِ

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ لَعَمْرِي بِنِ الْعَاصِ : مَا اللَّذَّةُ ؟ قَالَ : تَأْمَرُ شَبَابَ قُرَيْشٍ  
 أَنْ يَخْرُجُوا عَنَّا ، فَعَمَلُ . فَقَالَ : اللَّذَّةُ طَرَحُ الْمَرْوَةِ . وَقَدْ صَدَّقَ عَمْرُو ،  
 مَا تَكُونُ الزَّمَانَةُ وَالْوَقَارُ إِلَّا بِحَمَلٍ عَلَى النَّفْسِ شَدِيدٍ وَرِيَاضَةٍ مُتَعَبَةٍ . وَقَالَ  
 بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :



أَلَمْ تَرَ أَنَّ وُشَاةَ الرِّجَالِ لَا يَدْعُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا  
فَلَا تَقْشِرْ سَرَّكَ إِلَّا إِلَيَّ لَكَ فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا

- والسرُّ — أبقاك الله — إذا تجاوزَ صَدَرَ صاحبه وأُفِلت من لسانه إلى ٣  
أُذُن واحدة ، فليس حينئذٍ بسرٌّ بل ذاك أَوَّلَى بالإذاعة ومِفْتَاحُ الشرِّ  
والشُّهرة . وإنما بينه وبين أن يَشِيْعَ وَيَسْتَطِيرَ أن يُدْفَعَ إلى أُذُن ثانية ، وهو  
مع قَلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ عليه — وكربِ السَّكْتَانِ — حَرَىُّ بِالانتقال إليها في طَرَفَةِ عَيْنٍ . ٦  
وصَدَرُ صاحِبِ الأُذُنِ الثانيةِ أَضْيَقُ وهو إلى إفشائه أَسْرَعُ وبه أَسْخَى وفي  
الحديث به أَعْذَرُ والحِجَّةُ عنه أَدْحَضُ ، ثم هكذا منزلةُ الثالثِ من الثاني  
والرابع من الثالثِ أَبَدًا إلى حيثُ انتهى . هذا أيضًا إذا استعهدَ الحَدَّثُ ٩  
واستسكتمَ وكان عاقلًا حليماً وناسحاً وَاذًا ، فكيف إذا أَخْبِرَ وَلَمْ يُؤْمَرْ  
بِالسَّكْتَانِ وَكَانَ مَنْ يَمْشِي بِالنَّمَامِ ويحبُّ إفشاءَ المعايِبِ ، وكان ممن يَنْطَوِي  
على غِشٍّ أَوْ شَحْنَاءٍ أَوْ كَانَ لَهُ فِي إِظْهَارِهِ اجْتِلَابُ نَفْعٍ أَوْ دَفْعُ ضَرَرٍ . فاللوم ١٢  
إِذْ ذَاكَ عَلَى صاحِبِ السَّرِّ أَوْجِبُ "وَعَمَّنْ أَفْضَى بِهِ إِلَيْهِ أَذْلُ" ، لَأَنَّهُ كَانَ مَالِكًا  
لِسَرِّهِ فَأَطْلَقَ عِقَالَهُ وَفَتَحَ أَفْقَالَهُ وَسَرَّحَهُ ، فَأَفْلَتَ مِنْ قَيْدِهِ وَوِثَاثِهِ وَصَارَ  
هُوَ الْعَبْدُ الْقَنُ الْمَمْلُوكُ لِمَنْ اتَّخَذَهُ عَلَى سَرِّهِ وَمَلَكَهُ رَقٌّ رَقْبَتِهِ . فإن شاء ١٥  
أَحْسَنَ مِلْكَتَهُ بِحِفْظِ ذَلِكَ السَّرِّ فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ وَجَعَلَهُ رَهِيْنَةً لِيَوْمٍ عَتَبَهُ  
عليه . وَقَالَ مَنْ يُحْسِنُ لِلْمَلِكَةِ وَيَحْرُسُ الْحَرَمِيَّةَ أَوْ يَضْبُطُ نَفْسَهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا  
لَمْ يُخْرِجْهُ غِيْشًا فَأَخْرَجَهُ سُخْفًا وَضَعْفًا . وَإِنْ أَسَاءَ الْمَلِكَةُ وَخَنَرَتِ الْأَمَانَةَ "أُطْلِقَ" ١٨  
السَّرِّ وَاسْتَرْعَاهُ مَنْ هُوَ أَشَدُّ لَهُ إِضَاعَةً فَسَفَكَ الدَّمَ وَأَزَالَ النِّعَمَ وَكَشَفَ

- القورة و فرّق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسره \* ألوم . قال الشاعر :
- إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق
- ٣ فمن أسوأ حالا وأخسر مكانا وأبعد من الحزم ممن كان حرا مالكا لنفسه فصير نفسه عبدا مملوكا لغيره مختارا للرق من غير أمر ولا قسر . والعبيد لم يصبروا على الرق إلا بذل الأسر والسبأ . ومن كان سره مصوناً
- ٦ في قلبه ، يطلب إليه في الحديث به فأخرجه عن يده ، صار هو الطالب الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ولا يفكر له في عاقبة ولا يتحرز له بمصيبة . وكلما كانت إذاعته لأسراره أكثر كان عدد مواليه
- ٩ أكثر وشقاؤه بخدعتهم أدوم . فإذا كان أصل السر معلوما عند عدة أو أقل من العدة فما أعسر استتاره ، غير أنه لا ألوم على صاحب الجناية فيه ، " إذ كان ليس هو الذي أفشاه ولا من قبله علم
- ١٢ ولو أن أوزن الناس حِلماً ملك لسانه وحسن سره وقلل لفظه ، ما قدر على أن يملك لحظ عينيه وسحنة وجهه وتغير لونه وتبسمه أو قطوبه ، عندما يجري به من ذكر ذلك السر أو خطر بباله منه ، فيبدو
- ١٥ في وجهه ومحاياله إذا عرض ذكره أو سنع له نظيره أو مثل أو حصر من له فيه سبب ، إلا بعد التصنع الشديد والتحفّظ المفرط . فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ويُطلع عليه بتظنّ المرّبين والمتعقبين للأفعال والأقوال والنظر في مصادير التدبير ومحاييل الأمور ، فيفشوا من هذه

- الجهات أكثر مما تُفسِّيه السُّنُ المذاييع المبدّر ، فكيف إذا أطلق به اللسان وعود  
إذاعته القلبُ والعادة أمّك بالأدب . وربما أدركه الحدسُ وقبضه الظنُّ ،  
فذاكَ صاحبه فيه خُدعة بأن يُذكر له طَرَفٌ منه ويُوهم أنه قد فشا ٣  
وشاع فيُصدّق الظنُّ فيجعله يقيناً ويفسّر الجملة فيصيرها تفصيلاً فيهلك  
نفسه ويؤبّقها . ورُبَّ كلامٍ قد ملأ بطون الطوامير قد عُرِفَ جملته وما فيه  
الضررُ منه بسجاعة أو طابع أو لحظة مُطلِع في الكتاب أو حرف ٦  
تبيّن من ظهّره . فاستيقظ عند هذه الأحوال واستعمل سوء الظنِّ بجميع  
الأنام . فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الحزمُ سوءُ الظنِّ .  
وقيل لثقيف : يمّ بلغتم ما بلغتم من الشرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظنِّ . ٨  
فلا تعتمد على رجل في سرّك تحمد عقله دون أن تحمد وُدّه ونصحته ، فإن  
الأمر في ذلك كما قال الشاعر :

- وما كلُّ ذي لبٍّ بمؤتيك نصحه ولا كلُّ مُوتٍ نصحه بلييب ١٢

- ولقد استحسن الناسُ من بعض رجال العراق أنه دخل على عبد الملك بن مروان  
فاوقَعَ بالحجّاج عنده وسبّه . فلما خرج من عنده خبّر بما كان منه لبعض  
أصحابه فلامه وأنبّه ، وقال : ما يؤمنك أن يُخبر أمير المؤمنين بعبدُ الملك ١٥  
الحجّاج بما قلتَ فيه — ومرجعتك إلى العراق — فيضغنه عليك ؟ قال :  
كلا والله إني ما رطلتُ بيدي قطُّ أحداً أرزن منه

- وهذا والله — أبقاك الله — النلطُ البين والغدرُ الملتصق وتحسينُ ١٨  
فارطٍ انخطأ ، لأنه ليس كلُّ راجعٍ وعاقِلٍ بناصحٍ لصاحبِ السرِّ ، ولو كان

أخوه كذلك كان أمره إليه أهمّ وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلف  
الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدنون بالأعلىين رغبة ورهبةً وتحسناً  
عندهم لحاجتهم إليهم ٣

وأكثر من يُذيع أسرار الناس أهلهم وعبيدُهم وعاشيتُهم وصبيانُهم ،  
ولهم عليهم اليد والسلطان . فالسرّ الذي يودعه خليفة في عامل له يلحقه زينة  
وشينه أخرى أن لا يكتمه . وهذا سبيل كل سرّ يُستودعه الخليفة  
والعطاء ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه اللامة ٦

وقال سليمان بن داود في حكته : ليكن أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرّك  
واحداً من ألف . وليس معنى الحديث أن تُعدّ ممن تعرف ألفاً وتُفضي إلى  
واحدٍ بسرّ . إن لم يكن ذلك الواحد موضعاً للأمانة في السرّ ، لكنته قيل :  
رجل يساوي ألف رجل ورجل لا يساوي رجلاً ، وكقول رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : الناس كابل مائة لا يوجد فيها راحلة . فكلّ ذلك يراد به  
أن الفضل قليل والنقص قليل لا على نسب ما يتلقاه الاجتماع من هذه  
الأعداد ، لأننا قد نجد الرجل يوزن بالامة ونجد الامة لا تساوي قلامة ظفر  
ذلك الرجل . فإذا كان من تقع عليه هذه الشريطة معدوماً شيئاً من يوثق  
بخله وعقله وأمانته ونصحه ومن لا ضرر عليه ولا نفع له في السرّ الذي  
يضمّر ولا يجرّم عليه كتمانهُ ، ومن قد وآى على نفسه بالسرّ والحفظ ، فإنه  
ليس كل من ضمن فلم يضمن ضامناً ولا من استودع فلم يقبل مُستحفظاً ولا  
من استخلف فلم يخلف خائفاً ، وإنما يلحقه الحد والذم والأجر والإثم إذا ١٨

- صَنِينَ الْأَمَانَةِ ثُمَّ خَتَرَهَا . فَكَانَ الْقَوْمُ قَالُوا : لَا تُودِعَنَّ سِرَّكَ أَحَدًا ، وَإِلَّا  
فَتَى تَجِدُ رَجُلًا فِيهِ الصِّفَةُ الَّتِي وَصَفَ بِهَا مَسْكِينُ الدَّارِمِيِّ نَفْسَهُ حَيْثُ يَقُولُ :
- ٣ إِنْ أَمَرْتُ مَتَى الْحَيَاءَ الَّذِي تَرَى أَنُوهُ بِأَخْلَاقٍ قَلِيلٍ خَدَاعُهَا  
أَوْ أَخِي رَجَالًا لَسْتُ أَطْلِعُ بَعْضَهُمْ عَلَى سِرٍّ بَعْضٌ غَيْرَ أَنِّي جَمَاعُهَا  
يُظَلُّونَ شَتَّى فِي الْبِلَادِ وَسِرُّهُمْ إِلَى صَخْرَةٍ أَعْيَا الرِّجَالُ انْصِدَاعُهَا
- ٦ وَقِيلَ لِرَجُلٍ : كَيْفَ كَتَمْتُكَ لِلسِّرِّ ؟ قَالَ : أَجْعَلُ قَلْبِي لَهُ قَبْرًا أَدْفِنُهُ فِيهِ إِلَى  
يَوْمِ النَّشُورِ . وَقَالَ الْآخَرُ :

\* وَاکْتُمُ السِّرَّ فِيهِ ضَرْبَةُ الْعُنُقِ \*

- ٩ وَهَذِهِ صِفَاتٌ مُوجُودَةٌ بِالْأَقْوَالِ مَعْدُومَةٌ بِالْأَفْعَالِ ، وَالْمَغْرُورُ مِنْ اغْتِرَّ بِمَا  
يَعْدُهُ الْوَاعِدُ مِنْهَا دُونَ أَنْ يَبْلُغَ الْخَبَرَ . وَالَّذِي جَرَّبَنَاهُ وَوَجَدْنَاهُ أَنَّ أَكْثَرَ  
مَنْ يُفْضَى إِلَيْهِ بِالشَّيْءِ يَبْلُغُ مِنْ إِذَاعَتِهِ وَنَشْرِهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ الرَّسُولُ الْمُسْتَحْفَظُ
- ١٧ الْمَعْنَى بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ الْحَمْدُ لِلْجَازِئِ عَلَى أَدَائِهَا ، حَتَّى رُبَّمَا كَانَ لَا يَبْلُغُ  
فِي الْإِذَاعَةِ لِمَنْ أَرَادَهَا أَنْ يَقْصِدَ لِلْبَلَاغَةِ مِنَ الرِّجَالِ الْمَعْرُوفِ بِالنِّمَةِ  
وَالْتَفَتِيتِ فَيُؤَمِّمُهُ أَنَّهُ قَدْ اسْتَحْفَظَهُ السِّرُّ فَيُشِيعُ عَلَى لِسَانِهِ كَمَا يُشِيعُ الضُّوءُ  
فِي الظُّلْمَةِ . وَهَذَا فَعْلُ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ أَحَبَّ أَنْ يُشِيعَ
- ١٥ إِسْلَامُهُ ، فَقَالَ : مَنْ أَنْتُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ؟ قِيلَ لَهُ : جَمِيلُ بْنُ النُّعَيْتِ ، فَأَتَاهُ  
فَأَخْبَرَهُ بِإِسْلَامِهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَكْتُمَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يُسِرْ وَبِمَكَّةَ أَحَدٌ لَمْ يَعْلَمْ بِإِسْلَامِ
- ١٨ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . ثُمَّ يَكُونُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَعْوَانِ عَلَى إِظْهَارِ السِّرِّ الِاسْتِعْهَادُ  
فِيهِ وَالتَّهْذِيرُ مِنْ نَشْرِهِ ، فَإِنَّ النَّهْيَ أُغْرِي لِأَنَّهُ تَكْلِيفُ مُشَقَّةٍ ، وَالصَّبْرُ عَلَى  
التَّكْلِيفِ شَدِيدٌ وَهُوَ خَطِرٌ ، وَالنَّفْسُ طَيَّارَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ تَعْشَقُ الْإِبَاحَةَ وَتُفَرِّمُ

بالإطلاق . ولعل رجلاً لو قيل له لا تمسح يدك بهذا الحِدار ، وهو لم يمسحها به  
قط ، غرئى بأن يفعل . وكذلك ما حدث به من السر فلم يؤمر بستره لعله ألا  
يخطر بباله ، لأنه موجود في طبائع الناس الوُلوغ بكل ممنوع والضجر بكل  
محصل . فتريد أن تعلم لم صار الإنسان على ما مُنِع وإن كان  
لا ينفعه أحرص منه على ما أبيح من غير علة ولا سبب إلا امتنان  
ما كثر عليه واستطراف ما قلَّ عنده ، ولم أقبل على من ولى عنه وولى  
عن أقبل عليه ، ولم قالوا : إذا جدَّت المسألة جدَّ المنع . وقال الشاعر :

الحُرُّ يُلْحَى والعصا للعبدِ      وليس للملحفِ مثلُ الرَّدِّ

ولم صار يتمنى الشيء وينذر فيه النذور وينقطع إليه شوقاً ، فإذا ظفر به  
صدَّ عنه وأخلق عنده ، ولم زهد الملوك فيما في أيديهم ورغبوا فيما في أيدي  
الناس . فنقول : إن الله تبارك وتعالى جعل لكل نفس مبلغاً من الوسع  
لا يمكنها تجاوزه ولا تتسع لأكثر منه ، فكان معها فيما دون الوسع الفقر  
وخوف الإخوان فيما تجاوزه عز الغنى وأمنُ العدم . وبهذا وبمثله من البخل  
والحرص استخفت من أحتاج إليها وأعظمت من استغنى عنها ، وجعلها  
توأمة مُشتاقة مُطرقة ملالة كثيرة النزاع والتقلب يستحكم عليها العنته  
وتبلى خيرها وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلل سَقَطَت المحن ، فهي  
نُعْظَم القليل بالضرورة إليه إن كان من أقواتها ، أولسدة النزاع والشوق إن  
كان من طرَف شَهِواتها ، فإن صنوف الشهوات كثيرة ولكل صنف منها  
أهل لا يحفلون بما سواه ، ويتمسجون من الغريب النادر ويضحكها البديع

الطارئ ، إلا أنه إذا كثّر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوزَ المطلوبُ مقدارَ  
 وسعِها وحاجتها فصار ظهيراً وفضلاً استخفت به . وقلّ في أعينها كثيره .  
 ٣ وأعظمُ الأشياءِ عندها قدرًا ما اشتدَّ إليه الفقرُ والحاجة . وإن قلَّ ضرُّه ،  
 وأهونها عليها ما استغنى عنه . وإن عظمَ خطرُه ، وجعلَ لما يتوقُّ إليه ويشتاقُه  
 مكانًا من قواها له ، فإذا امتلأ ذلك المكانُ سروراً وقضى ذلك الأربَ وطراً  
 ٦ ممّا كان طمَحَ إليه وروى ممّا كان ظامئاً إليه ، انصرفَ عنه وقلاده . وحالَ  
 عشقه بُغضاً وشوقه ملالاً

والعلة في ذلك أن الدنيا دارُ زوالٍ ومَلالٍ ليس في كِيانها أن تثبت هي  
 ولا شيء ممّا فيها على حالٍ واحدة ، وإنما الثبوتُ الدائمُ لدارِ القرار . فالسامةُ  
 تلحقُها في محبوبيها كما تلحقُها في مكروهاها ، كما يُصيبُ المنتهي من الطعامِ  
 والشرابِ والباه ، فإنه ليس شيءٌ أبغضَ إلى من يبتئاه فيه إلى غايته من  
 ١٢ النظرِ إلى ناحيته فضلاً عن مُلابسته ، إلى وقتِ عودةِ السببِ الأولِ  
 فإذا كانت الطبائعُ تتشابهُ ولكلُّ حاسةٍ قوّةٌ ، فإذا امتلأت تلكَ  
 القوّةُ من محسوسها لم تجد لها وراءه طعمًا ولا ريحًا وعادَ عليها بالضرر .  
 ١٥ فبعضُ النظرِ يُعَمِّي والصوتُ الشديدُ يُصِمُّ والرائحةُ المنقّنةُ تُبْطِلُ  
 التشمُّمَ والأطعمةُ الحارةُ الحارقةُ تُبْطِلُ حاسةَ اللسان . وتتطَرَّفُ كلُّ واحدةٍ  
 منها ، فبينَ الطيبِ عند مَنْ بعدُ عهدُه < به > أو الجماعِ والسماعِ وبينه  
 ١٨ < عند > مَنْ هو مغموسٌ فيه بَوْنٌ بعيدٌ جدًّا في الحلاوةِ وحسنِ الموقعِ .  
 كلُّ ذلك ما لم يأتِ المالُ والعلمُ ، فإنه كلما كثُرَ كان أشمى وأعجب . لأنَّ قصدَ

(١٤) طعماً د — (١٧) صححنا العبارة : عهدُه والجماع والسماع وبين من د

الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسد الخلة كما يريد أهل القناعة والزهادة، وإنما يراد اتمتع الحرص، والحرص لا حد له ولا نهاية، لأنه سعى لا حاجة وإيضاح لا لبغية. وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أن لابن آدم واديين من ذهب لأبغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. وقال بعض الحكماء

مَنْ كَانَ لَمْ يَفْنَ بِنَا يُغْنِيهِ . فَكُلْ مَا فِي الْأَرْضِ لَا يُغْنِيهِ  
قال الله عز وجل وَيُحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا . وقال وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ  
لَشَدِيدٌ . وقال الشاعر

وَالنَّاسُ إِنْ شَبِعَتْ بَطُونُهُمْ فَعَيُونُهُمْ فِي ذَاكَ لَا تَشْبَعُ  
فأما الحديث الذي جاء : لا يشبع أربع من أربعة : أرض من  
مطر وعين من نظر وأثر من ذكر وعالم من علم، فإن العين لا تشبع في  
الجملة كما لا يشبع الخيشوم من الاستنشاق . فأما من < يشبع من > صنف  
مما يراه دون صنف فإنه يشبع ويروى ويصدق ويصدق إلى غيره . وأما العلم  
فإنه أوسع من أن يحاط به ، فمن طلبه لشرفه ونفخه فإنه لا حد له ولا نهاية ،  
ولم يزد له طلباً إلا ازداد فيه رغبة ، ومن طلب منه مقدار كفايته  
وحاجته كفاه منه اليسير . على أنه لا يملك من كثر عمله أن يرى فيه الغنى  
والكبرياء أيضاً ، وقد يمل كل شيء وتمل العين أيضاً منه  
ومن المال

وقيل : اثنان منهومان طالب علم وطالب دنيا . وهذه التهمة تدل على

(٧-٨) الفجر : ٢٠ والعبادات : ٨ — (١٢) < يشبع من > : سقط من  
الأصل وأضفناه — (١٩) التهمة ، صححناه : القصة ٥



الخروج عن العقل لأنَّ النَّهْمَ تَجَاوَزَ الْقَدْرَ . وَأَمَّا الْحِرْصُ عَلَى الْمَنْفُوعِ الَّذِي لَا يُفْتَنُّ بِهِ وَالْعَجَبُ مِمَّا لَا يُتَعَجَّبُ مِنْ مِثْلِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ الْعُقَلَاءِ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَلَا نَظَرَ فِيهِ وَلَا قِيَاسَ عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ ٣  
مَنْ أَسْتَوْحَشَ مِنَ الْحُجَّةِ وَشَرَّدَ عَنْ عِلْمِ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ

وإفشاء السرِّ إنما يُوَكَّلُ بِالْخَبَرِ الرَّائِعِ وَالْخَطْبِ الْجَلِيلِ وَالذَّهْنِ الْمَغْمُورِ وَالْأَشْنَعِ الْأَبْلَقِ ، مِثْلُ سِرِّ الْأَدْيَانِ لِغَلْبَةِ الْهَوَىٰ عَلَيْهَا وَتَضَافُنِ ٦  
أَهْلِهَا بِالْاِخْتِلَافِ وَالتَّضَادِّ وَالْوَلَايَةِ وَالْعِدَاوَةِ ، وَمِثْلُ سِرِّ الْمُلُوكِ فِي كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ وَمَسْكُونِ شَهَوَاتِهِمْ وَمَسْتَوْرِ تَدْبِيرَاتِهِمْ ، ثُمَّ مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعُظَمَاءِ وَالْحُلَّةِ ، لِنَفَاسَةِ الْعَوَامِّ عَلَى الْمُلُوكِ وَأَنَّهُمْ سَاءَ مُظِلَّةٌ عَلَيْهِمْ أَعْيُنُهُمْ إِلَيْهَا ٩  
سَامِيَةٌ وَقُلُوبُهُمْ بِهَا مُعَلِّقَةٌ وَرَغَبَاتُهُمْ وَرَهْبَاتُهُمْ إِلَيْهَا مَصْرُوفَةٌ . ثُمَّ عِدَاوَاتِ الْإِخْوَانِ ، فَإِنَّمَا صَارَتِ الْعِدَاوَةُ بَعْدَ الْمَوَدَّةِ أَشَدَّ لِأُطْلَاعِ الصَّدِيقِ عَلَى سِرِّ صَدِيقِهِ وَإِحْصَانِهِ مَعَايِيهِ ، وَرَبَّمَا كَانَتْ فِي حَالِ الصَّدَاقَةِ يَجْمَعُ عَلَيْهِ ١٢  
السَّقَطَاتِ وَيُخْصِي الْعُيُوبَ وَيَحْتَفِظُ بِالرَّفَاعِ ، إِرْصَاداً لِيَوْمِ النَّبُوءَةِ وَإِعْدَاداً لِحَالِ الصَّرِيحَةِ . وَقَدْ شَكََا بَعْضُ الْمُلُوكِ تَنَقَّبَ الْعَوَامُّ عَنْ أُمُورِ الْمُلُوكِ فَقَالَ

١٥ مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِمَّا مَا يَنَامُ النَّاسُ عَنَّا  
لَوْ سَكْنَا بَاطِنَ الْأَرْضِ لَكُنَّا نَوَاحِثُ كُنَّا  
إِنَّمَا هَهُمُ أَنْ يَنْشُرُوا مَا قَدْ دَفَنَّا

١٨ وَلَمْ تَزَلْ حُبُّ الطَّعْنِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالتَّجَسُّسِ عَنْ أَخْبَارِهِمْ وَعِشْقِ تَنْشِيرِ الْمَعَايِبِ وَاسْتِحْلَالِ الْغَيْبَةِ ظَاهِراً فِي طِبَاعِ النَّاسِ لَا يَكَادُ يَنْجُو مِنْهُ

(١) النَّهْمُ تَجَاوَزَ الْقَدْرَ — وَإِنَّمَا الْحِرْصُ — (٦) الْإِدْمَانُ —

(١٨) وَلَمْ يَنْجُبْ —

أُحْذِرُهُمْ ، إِلَّا مَنْ رَجَعَ حِلْمَهُ وَعَظَمَتْ مُرُوَّتُهُ وَظَهَرَ سُودُّهُ وَأَشْتَدَّ  
وَرَعُهُ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُم : الْغَيْبَةُ فَأَكْهَمَ النَّسَاكَ . وَرَوَّاهُ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ  
٣ قَالَ : الْفَاسِقُ لَا غَيْبَةَ لَهُ . وَقَالَ آخَرُ : أَتُرَاعُونَ مِنْ ذِكْرِ الْفَاسِقِ ؟ أَذْكُرُوهُ  
يَعْرِفُهُ النَّاسُ

وَلَمْ تَرَ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ رَخَّصَ فِي اغْتِيَابِ مُؤْمِنٍ ، بَلْ ضَرَبَ الْمَثَلَ فِي الْغَيْبَةِ  
٦ بِأَكْرَمِهِ مَا تَكَرَّهَ النَّفُوسُ وَمَا تَخْتَارُهُ الْمَوْتُ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَقَالَ وَلَا تَجَسَّسُوا  
وَلَا يَغْتَبِبْ بَعْضُكُمُ بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا  
فَكَرَهُتُمُوهُ . وَاغْتِيَابُ النَّاسِ جَمِيعًا خَطِيئَةٌ جَوْرٌ فِي الْحُكْمِ وَسُقُوطٌ فِي  
٩ الْمَمَنَةِ وَسَخَافَةٌ فِي الرَّأْيِ وَذَنَاءَةٌ فِي الْقِيَمَةِ وَكُلْفَةٌ عَرِيضَةٌ وَحَسَدٌ  
وَنَفَاسَةٌ قَدْ اسْتَحْوَذَتْ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ وَغَلَبَتْ عَلَى طَبَائِعِهِمْ وَتَوَكَّدَتْ  
لِسُوءِ الْعَادَةِ عِنْدَهُمْ وَلَعَلُّوا الشَّرَّ عَلَى الْخَيْرِ وَكَثُرَ الدَّغْلُ وَالنَّغْلُ وَالْحَسَدُ فِي  
١٢ الْقُلُوبِ . فَلَسْتُ تَرَى مِنْهَا نَاجِيًا ، أَمَّا نَاطِرٌ بِعَيْنِ عَدْلٍ وَإِنْصَافٍ فَهُوَ يَرَى  
مَا يُنْكِرُ فَيَبْدُو فِي وَجْهِهِ وَلِسَانِهِ ، وَأَمَّا نَاطِرٌ بِعَيْنِ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ فَهُوَ  
كَثِيرٌ أَمَّا يَجِدُ مِنَ الْعُيُوبِ فِي عَدُوِّهِ مَا يُعِينُهُ عَلَى التَّخَرُّصِ عَلَيْهِ فَيَقْوِيهَا وَيَزِيدُ  
١٥ فِيهَا ، وَإِنْ عَدِمَ الْحَقُّ تَقْوِيلَ وَقَبِيحَ الْحَسَنِ وَزَادَ فِي قُبْحِ الْقَبِيحِ . وَالْحَدِيثُ  
كُلُّهُ إِلَّا مَا لَا بَالَ بِهِ ذَكَرُ النَّاسِ وَلَعُوْا وَخَطَلُوا وَهَجَرُوا وَهَذَا غَيْبَةٌ وَهَمَزٌ وَلَمْزٌ .  
وَقَالَ بَعْضُ الْحَكَمَاءِ لِأَيُّنِهِ : يَا بُنَيَّ إِنَّمَا الْإِنْسَانُ حَدِيثٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ  
١٨ تَكُونَ حَدِيثًا حَسَنًا فَأَفْعَلْ .

وَكُلُّ سِرٍّ فِي الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ خَبْرٌ عَنْ إِنْسَانٍ وَطَى عَنْ إِنْسَانٍ ، فَلَهُ فِي

(٣) أَتُرَاعُونَ ② — (٩) ذَنَاءٌ ② — (١٢) يَغِيرُ عَدْلٌ ② — (١٣) نَظَرٌ ② —

(١٤) كَثِيرٌ مَا ② — (١٩) أَوْطَى ②

- الغيبية أكثر الخطأ، وجعلها كلفة لا ضرورة. يرى صاحبها أنه قد أهمل  
 مُحاسنة نفسه وغير ذنوبها، وألغى عُيوبها، وقصد قصد غيره فتشأغل عما  
 يعنيه بما لا يعنيه، فأنكر أقواله وأفعاله وهجن تدييره وتعجب من ٣  
 مقابحه وجهد نفسه في تفقد أموره، ليس ذلك عن عناية بصلاحه ولا محبة  
 لتقويمه وتهذيبه، ولا أنه مُسيطر عليه ولا محمود عنده على ما عني به من شأنه،  
 بل هو عنده عين المذموم. وهذا جُلّ حديث البشر وشغلهم في الليل والنهار ٦  
 قال بعض الحكماء: فُضول النظر تدعو إلى فضل القول وفضول  
 الخواطر تبعث على اللهو والخطل. ولو كان الرجل لا يتكلم إلا بما  
 يعنيه ولا يتكلم ما قد كُفّيه، قلّ كلامه. ولو حكّم العدل في أموره وفيما ٩  
 بينه وبين خالقه وبينه وبين إخوانه ومعامليه، لطاب عيشه وخفت مؤونته  
 والمؤونة عليه. فإن الله تبارك وتعالى لم يخلق مذاقاً أحلى من العدل ولا أروح  
 على القلوب من الإنصاف، ولا أمر من الظلم ولا أبشع من الجور ١٢  
 وقال بعض المتقدمين: إنما يعرف الظلم من حكم به عليه. ومن استعمل  
 العدل دلّه على أن الناس يجدون من طعمه وطعم الظلم إذا قعله بهم مثل الذي  
 يجد إذا ظلم، فسكره لهم ما كره لنفسه فأنصف ولم يظلم. ويتظالم الناس فيما ١٥  
 بينهم بالشره والحرص المركب في أخلاقهم، فلذلك احتاجوا إلى الحكماء وقد  
 أطلق لهم تصرفها، وأخلاقهم وأماناتهم التي ردت إليهم الأحكام فيها ما جانيته  
 عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم ١٨  
 وقال بعض الحكماء: إن من أصعب الأعمال إنصافك في نفسك،

وَمُؤَاسَاةَ أَخَاكَ فِي مَالِكَ ، وَذَكَرَ اللَّهُ ، أَمَا إِنِّي لَا أَغْنَى قَوْلَ : سُبْحَانَ اللَّهِ  
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ - وَإِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ ذِكْرِ اللَّهِ - وَلَكِنْ  
ذَكَرَهُ عِنْدَ مَا يَعْزِضُ مِنَ الْأُمُورِ ، فَإِنْ كَانَ طَاعَةَ اللَّهِ فَعَلْتَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةَ  
لِلَّهِ اجْتَنَبْتَهُ

وَرَوَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : ثَلَاثَةٌ فِي ظِلِّ عَرْشِ اللَّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ :  
٦ رَجُلٌ لَمْ يَعْيبْ أَخَاهُ بِعَيْبٍ فِيهِ مِثْلُهُ حَتَّى يُصْلِحَ ذَلِكَ الْعَيْبَ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّهُ  
لَا يُصْلِحُهُ حَتَّى يَهْجُمَ عَلَى آخَرٍ فَتَشْقُلُهُ عَيْبُوهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ ، وَرَجُلٌ لَمْ  
يُقَدِّمُ يَدًا وَلَا رِجْلًا حَتَّى يَعْلَمَ أَفَى طَاعَةِ اللَّهِ هُوَ أَمْ فِي مَعْصِيَتِهِ ، وَرَجُلٌ لَمْ  
يَلْتَمَسْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِثْلَ مَا يُعْطِيهِمْ مِنْ نَفْسِهِ . أَمَا تُحِبُّونَ أَنْ تُنْصِفُوا ؟

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ  
مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ وَشَقَّلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ  
١٢ وَقَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ : يَا بَنَى إِسْرَائِيلَ أَيْرَى أَحَدُكُمْ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ  
أَخِيهِ وَيَنْفِي عَنِ الْجَذَعِ الْمَعْتَرِضِ فِي عَيْنِهِ

وَقِيلَ لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ : مَا أَفْضَلُ أَعْمَالِكَ ؟ قَالَ : تَرْكِي مَا لَا يَعْنِينِي  
١٥ وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ : أَعْيَيْتَنِي ثَلَاثُ خِلَالٍ : تَرْكِي مَا لَا يَعْنِينِي وَدِرْهَمٌ  
مِنْ حِلِّهِ وَأَنْخُ إِذَا احْتَجَجْتُ إِلَى مَا فِي يَدَيْهِ بَدَلَهُ لِي

وَمَا أَحَقَّ مَنْ أَحْصَيْتَ أَلْفَاظَهُ وَلَيْسَ مِنْ قَوْلٍ يَبْدُرُ مِنْهُ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ  
١٨ عَقِيدٌ ، وَمَنْ أَحْصَيْتَ عَلَيْهِ مَثَاقِيلُ الذَّرِّ وَاسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ جِلْدُهُ وَجَوَارِحُهُ ، أَنْ  
يَصْبُطَ لِسَانَهُ . وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَنْبَارِ : مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ

إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ

- وكلُّ امرئٍ غَسِبُ نفسه غيرُ مأخوذٍ بغيره ، وهو الوحيدُ دونَ الأهلِ  
والوَلَدِ والقَرَابَةِ . وقال اللهُ جلَّ ثناؤه — وَقَوْلُهُ الْحَقُّ — : كُلُّ امْرِئٍ بِمَا  
كَسَبَ رَهِينٌ . وقال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَبْزُقْكُمْ مَنْ  
ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ
- وليس الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ إِلَّا مَعَ السَّيْفِ والسَّوْطِ .  
وقال بعضُ الحكماء : شَيْئَانِ لَا صَلَاحَ لِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِالْآخَرِ : اللِّسَانُ وَالسَّيْفُ  
وأنت إذا تأملتَ أَكْثَرَ مَا يَتَنَاجَى بِهِ الْمُتَحَدِّثُونَ ، وَجَدْتَ أَكْثَرَ  
السَّائِلِينَ يَسْأَلُ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ وَيَكْتَرِثُ لِمَا لَا يَكُرُّهُ وَيُعْنِي بِمَا لَا يَنْفَعُهُ  
وَلَا يَضُرُّهُ ، وَأَكْثَرَ الْمُجِيبِينَ يَجِيبُ وَلَمْ يَسْأَلْ وَيَتَكَلَّفُ مَا لَا يَعْلَمُ ، وَلَوْ قَالَ  
لَهُ قَائِلٌ مَنْ سَأَلَكَ لَا تُنْصَحْ وَلَوْ حَاجَّكَ فِيمَا أَدَّيْ وَوَقَّفَكَ لَا تُنْقَطِعْ . قَالَ اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ : قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ
- ومرَّ هشامُ بنُ عبْدِ اللَّهِ ببعضِ أهلِ الكُفَّةِ والفُضُولِ وعليه خُلَّةٌ  
ذِبَالَةٌ يَسْحَبُهَا فِي التُّرَابِ ، فَقَالَ لَهُ الْمُتَكَلِّفُ : يَا هَذَا إِنَّكَ قَدْ أَفْسَدْتَ ثَوْبَكَ ،  
قَالَ وَمَا يَضُرُّكَ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لَيْتَكَ أَلْقَيْتَهُ فِي النَّارِ ، قَالَ : وَمَا يَنْفَعُكَ مِنْ  
ذَلِكَ ؟ فَأَخَذَهُ أَتْبَعُ الْإِخَامِ . وَلَوْ تَهَيَّأَ لِلْمُتَكَلِّفِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِثْلُ صَرَامَةِ  
هِشَامٍ لَأُزْدَجَرَ مَنْ بِهِ حِيَلٌ مِنْهُمْ وَلَقَلَّتِ الْفُضُولُ وَالْكُفَّةُ وَالنِّيبَةُ
- قالوا : وليس من أحدٍ أَذَلَّ مِنْ مُقْتَابٍ ، لِأَنَّهُ يُخْفِي شَخْصَهُ وَيُطْلِمِينَ

حِسَّهُ وَيَقْصُ مِنْ صَوْتِهِ ، وَلَا يَرِيدُ بِمَا يَنَالُهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بَأَن يَرْفَعَ مِنْ  
قَدْرِ خَصْمِهِ وَيُعْظَمَ مِنْ شَأْنِهِ

- ٣ قال معاوية : أتدرى من النبيل ؟ هو الذي إذا رأيتَه هَبَّتَه وإذا غابَ  
عَنكَ أَغْتَبَّتَه . وهي لَمَعْرَى سبيلُ العُظَاءِ عِندَ العَوَامِّ وَالْمُلُوكِ عِندَ  
الرَّعِيَّةِ وَالسَّادَةِ عِندَ الْعَبِيدِ ، فَلَمْ يَأْخُذِ الْمُغْتَابُ مِمَّنْ اغْتَابَهُ شَيْئاً بَعْضِهِمْ  
إِيَّاهُ إِلَّا وَالَّذِي أَعْطَى مِنَ الْهَيْبَةِ عِندَ حُضُورِهِ أَكْثَرَ مِنْهُ . وَلَوْ كَانَ الْمُغْتَابُ  
لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَّا مِمَّنْ يَخَافُ سَطْوَتَهُ كَانَ أَعْذَرُ ، وَلَكِنَّ اللَّؤْمَ الْمُتَمَكِّنَ مِنْهُ  
يَحْمِلُهُ عَلَى اغْتِيَابِ عَبْدِهِ وَأُمْتِهِ فَضْلاً عَنْ كُفُوِهِ وَنَظِيرِهِ ، وَبِغْتَابِ الرَّجُلِ عِندَ  
٩ عَدُوِّهِ وَالْمُشَاحِنِ لَهُ مُسَاعَدَتُهُ لَهُ بِالسُّخْفِ وَتَقَرُّبًا إِلَيْهِ بِالْمَاهِنَةِ وَالضَّعْفِ ، مِنْ غَيْرِ  
أَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَيْهِ طَوْلٌ أَوْ يَلْتَمِسَ مِنْهُ عَلَى مَا تَقَرَّبَ بِهِ إِلَيْهِ جِزَاءً أَوْ شُكُورًا .  
ثُمَّ لَعَلَّهُ يَنْكُفُّ إِلَى الَّذِي اغْتَابَهُ وَقَصْبُهُ مِنْ سَاعَتِهِ وَيَوْمِهِ ، فَيُعْطِيهِ فِي عَدُوِّهِ  
الَّذِي اغْتَابَهُ عِنْدَهُ أَيْضاً مِثْلَ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْهُ ، لَا لَعَلَّهُ أَيْضاً وَلَا مَرْفِقٍ  
١٢ وَلَا رِيحٍ أَكْثَرَ مِنَ الذَّلَّةِ الَّتِي يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ وَالضَّعْفِ فِي مَنَّتِهِ ، كَمَا يُعْظَمُ  
الْفَقْرُ بِغَيْرِ ثَمَنِ وَيَحْتَقِرُ الْفَقِيرُ بِغَيْرِ سَبَبٍ ، فَمَتَى كُوشِفَ أَوْ عُوتِبَ لَبِسَتِهِ  
١٥ ذِلَّةٌ أُخْرَى مِنَ الْكِفَلَةِ بِالْمَآذِيرِ الْكَاذِبَةِ وَالْإِعْتِصَامِ بِالْإِيمَانِ الْفَاجِرَةِ ، وَمَنْ  
كَانَتْ هَذِهِ دُرْبَتُهُ فَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ يُطْلَعَ عَلَى دِخْلَةِ أَمْرِهِ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ  
عُذْرٌ وَلَا يُصَدَّقُ فِي قَوْلٍ وَلَا حَلْفٍ ، وَقَدْ تَسَرَّبَلَتِ الذَّلَّةُ وَتَدَرَّعَ الْخُضُوعَ .  
١٨ وَلَيْسَ مِنْ سُوءِ النَّفْسِ الْكَرِيمَةِ الشَّهْمَةُ أَنْ تَلْقَى النَّاسَ بِخِلَافِ مَا يَخْلُقُونَ  
بِهِ ، مَا لَمْ تَأْتِ ضَرُورَةٌ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى كَيْدٍ وَغِيْلَةٍ أَوْ مَكْرٍ وَحِيلَةٍ . وَيُثَارُّ

بالغبية فيها الرأي الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقل فيما يحل له . ويحسن  
به ، بعد أن تعيمه الحيلة في أستصلاح ذلك العدو بالرفق والملاينة . وإنما  
قيل : قل من اعتذر إلا كذب ، لكثرية النطف في الناس وضعف أنفسهم  
٣ على الإقرار بالذنب . فلا ذلة الضعف الثاني في الاعتذار نهت عن كلفة  
الضعف الأول في الاغتياب ، ولا كلفة الضعف الأول صانت عن ذلة  
الضعف الثاني . وعلى أن أكثر من يعتذر إليه ليس بقابل للعدر على حقيقة ،  
٦ وإن أظهر القبول ، لما جرب من سخاء النفس بالآيمان وبعدم من الإقرار  
بالذنب ، ما لم تأت حجة واضحة ودليل شاهد عدل

وإذا كانت هذه سبيل المعتذر إليه ، فيحق على المعتذر — إن كانت في  
٩ نفسه قيمة — أن لا يعتذر إلا إلى من يحب أن يجد له عذراً ، ولا يعجل إلى  
الهمين وهو يجد للحجة مكاناً . وأكثر من يعتذر إليه إنما فعل ذلك به خوفاً  
من سقطته وإبقاء سلطانه . والمتفقون بتأولون في الأيمان السلطانية ما يباحق  
١٢ بها عند السلطان التهمة ويلزمهم الظننة ، سيما في الأمور التي في الإقرار بها  
إباحة الدم والمال وهتك السر . ولا حسم لهذا الداء إلا بأطراح الفضول  
وسلامة اللسان من أن يبلغ في الأعراض ويستسر بالعضية والبهت  
١٥

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ،  
ومن لم يسلم الناس منه فليس سائماً من نفسه . وقال القائل : أحرص أخاك  
إلا من نفسه . وقالوا مقتل الرجل بين فكّيه . وكتب على بعض أبواب  
١٨ المدن بالسند : أحفظ رأسك . وقال الأول : قد تصل النصال إلى الإخوان

(٤) لعل العيوب : عن — (٥) الأول — (٧) لعل انصبوب : الناس —

(١٢) لعل العيوب : من سقطته — (١٥) يبلغ — (١٩) بالسند —

فَتُسَخَّرُج ، وأمثالُ الفِصال من القول إذا وَصَلَتْ إلى القلب لم تُسْتَخْرَج أبداً . وقال بهرام ، وَتَمِيع في الليل صَوْتَ طائرٍ فَتَحْدَاهُ بِسَهْمٍ وهو لا يراه إلا أَنَّهُ تَتَبَّعَ الصَوْتَ فَصَرَعَهُ ، فلما صار بين يديه قال : والطيرُ أيضاً لو سَكَتَ كَانَ خَيْرًا لَهُ . وقيل : ما شئٌ أَحَقَّ بِطُولِ سِجْنٍ من لسان . وقيل : إِنَّهُ يَسْأَلُ اللِّسَانُ الأَعْضَاءَ في كُلِّ يَوْمٍ فيقول : كيف أَنْتَ ، فَيَقُلْنَ : بَخِيرٌ إِنْ تَرَكْتَنَا . وقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ : وهل يُكِبُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاحِرِهِم في النارِ إِلَّا حَصَائِدُ السِّتَمِ

وقال عيسى عليه السلام : أَعْمَالُ الْبِرِّ ثَلَاثَةٌ : الْمَنَطِقُ وَالنَّظَرُ وَالصَّمْتُ ، فَمَنْ كَانَ مَنْطِقُهُ في غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ لَغَا ، وَمَنْ كَانَ نَظَرُهُ في غَيْرِ اعْتِبَارٍ فَقَدْ سَهَا ، وَمَنْ كَانَ صَمْتُهُ في غَيْرِ تَفَكُّرٍ فَقَدْ لَهَا . فَأَنْظِرْ بَائِيَ الْأَمْرَيْنِ قَطَعْتَ عُمرَكَ : أَيْ الْحِكْمَةَ أَمْ بِالْأَفْو . وَأَنْظِرْ كَيْفَ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ أَتَى عَلَيْهِ بَخِيرٌ مِنْ عِبَادِهِ فَقَالَ : وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّفْوِ مُعْرِضُونَ . وقال : وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ . وقال : وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّفْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وصانَ عَنْهُ أَسْمَاعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالسِّتَمِ فَقَالَ : لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَفْوَ وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا . وقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْعِبَادَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءَ تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ . وقال عليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ : أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الصَّبْرُ وَانْتِظَارُ الْفَرَجِ

وقال بعضُ الحكماء : لَوْ لَمْ يَكُنِ لِلصَّامِتِ فِي صَمَتِهِ إِلَّا الْكِفَايَةُ لَأَنَّ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ وَيُحْكِي عَنْهُ مُحَرِّقًا فَيَضْطَرُّ إِلَى أَنْ يَقُولَ : لَيْسَ هَكَذَا قُلْتُ إِنَّمَا قُلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَكُونُ إِسْكَارُهُ إِقْرَارًا واعترافه بما حُكِيَ عَنْهُ شَاهِدًا لِنَبِيِّ



وَشَى بِهِ وَأَدْعَاهُ التَّحْرِيفَ غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بَيِّنَةً بِهَا ، لَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَكْثَرِ فَضَائِلِ الصَّمْتِ . وَبِمَا ذَكَرَ رَجُلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَكَانَ ذَلِكَ الذِّكْرُ إِيمَانًا لَهُ ، لِأَنَّهُ قَدْ يُدْخِلُهُ فِي بَابِ تَفْخِيمِ الذَّنْبِ الْحَقِيرِ وَالْإِغْرَاءِ ٣ وَالتَّحْرِيفِ ، فَيَسْفِكُ الدَّمَ الْحَرَامَ أَوْ يَعْظُمُ الْجُرْحَ الصَّغِيرَ ، بَلْ رُبَّمَا ضَحِكَ وَتَبَسَّمَ فَأَغْرَى وَحَرَضَ وَأَثَمَ وَأَوْبَقَ . قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

٦ فَإِنْ شِئْتُ أَدَلِّي فِيكَمَا غَيْرَ وَاحِدٍ مُجَاهَرَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِرٍّ  
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمُرْ وَلَمْ أَنُحْكَمْ عَنْكُمَا فَخِجْتُ لَهُ حَتَّى يَلْجَأَ وَيَسْتَشِيرِي  
وَقَالَتِ الْعَرَبُ : مَنْ كُنِيَ شَرًّا لَقَلْبِهِ وَذُبْذُبُهُ وَقَبْقَبُهُ فَقَدْ كُنِيَ الشَّرَّ

٩ وَهَذَا بَابٌ لَوْلَا أَنْ نَشْغَلَ الْقَارِئُ لِهَذَا الْكِتَابِ بِغَيْرِ مَا قَصَدْنَا إِلَيْهِ وَعَزَمْنَا عَلَيْهِ لِأَيْنَمَا عَلَيْهِ ، وَهُوَ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لِمَنْ طَلَبَهُ . وَجُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ فِيهَا كِفَايَةٌ ، فَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ الْأَلْفَاظُ الَّتِي تُجْعَلُ كَسُوءَةٍ لِمَا لَمْ يَكُنْ . وَإِلَّا فَإِنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى جَمِيعِ شُرُورِ الدُّنْيَا وَجَدْتَ أَوَّلَهَا كَلِمَةً غَارَتْ فُجِنَتْ حَرْبًا عَوَانًا كَحَرْبِ ١٢ بَكْرِ وَتَغْلِبَ ابْنِي وَائِلَ وَعَبَسَ وَذُبْيَانُ ابْنِي بَفَيْضِ وَالْأَوْسِ وَالْفُزْرِجِ ابْنِي قَبِيلَةَ وَالْفَجَارِ الْأَوَّلِ وَالْفَجَارِ الثَّانِيِ وَعَامَّةِ حُرُوبِ الْقَرَبِ وَالْعَجَمِ .

١٥ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ لَمْ تُحْصِ عِدَدَ مَنْ قَتَلَهُ لِسَانُهُ وَكَانَ هَلَاكُهُ فِي كَلِمَةٍ بَدَّرَتْ مِنْهُ . وَلَيْسَ الْعَجَبُ بِمَنْ أَنْضَى بِسْرَهُ إِلَى مَنْ لَيْسَ لَهُ بِمَوْضِعٍ رِيحٍ تَقَدَّمَتْ مَعْرِفَتُهُ وَزَالَتْ الشُّكُوكُ عَنْهُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّ الْعَجَبَ عَيْنَ الْعَجَبِ مِمَّنْ اسْتَنَامَ بِسْرَهُ إِلَى مَنْ لَمْ يَقْدَمْ مَعْرِفَتُهُ وَمَنْ أُنْسَ إِلَيْهِ عَنْ الْقَاءِ وَاللِقَائَيْنِ ١٨ دُونَ مَعْرِفَةِ الْعَيْنِ وَالْإِسْمِ وَالسَّبَبِ وَالنَّسَبِ ، فَاتَّخَذَ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَغَيْنِ عَقْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِنَ دِينَهُ وَمَالَهُ وَتَضَاعَفَتْ عَلَيْهِ الْبَلِيَّةُ بِطَوْلِ الْحَسْرَةِ ، فَإِنَّ

(١) لعله : له — (١٢) كذا في الأصل ولعله : ثارت أو بدرت — (١٨) عن القاءة واللقاءين

البلاء عارضٌ ومُسْكَنَسَب ، فكان العارض السماوي وما خوّلته الأقدار سرّاً  
 بعد اجتِهَادِ صاحبه رأيه وحيلته في طلبِ الخير . وصوابُ تدبيره فيه أسهلُّ  
 ٣ وأيسرُ على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كلُّ مكروهٍ مرّاً بشعاً . وإنما  
 الكربُ اللازم والداء العيأ ما اجتمع على صاحبه مع الفجيرة والحاجة  
 والنقص والذلة غمُ الندامة والأسفُ على ما فرط منه ، إذ كان الجاني على  
 ٦ نفسه بيده . ولهذا الكلام نظرٌ نكوهُ التطويل به والمعنى واحد . وإنما  
 تحتاجُ من هذا ومثله ممّا قدّمنا ذكره في الكتاب إلى حفظ السرِّ ووزن  
 القول ، وإلى هذا أجرينا وله قصدا . ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على  
 ٩ حرفٍ مما فيه لكان بإذن الله كافياً لمن كان له لبٌّ وعقلٌ ، لكن الاحتجاجَ  
 أوكّدُ والإيضاحُ أبلغُ ، والحظُّ في هذا القولِ كلّهُ لمن عقله والآخذُ به  
 أوفَرُ > منه < لمن قاله ولم يعمل بقوله ، لأنه إنما يجتني ثمرة الصواب  
 ١٢ ويختلف برقه من صدق قوله بفعله . فإن الحكمة قولٌ وعمل ، وإنما حظُّ القائل  
 ما لم يستعمل علمه وقوله حظُّ الواصفين ، وحسنُ الصفة تزول بزوالها وتنقطعُ  
 بانقطاعها ، ومُدَّتْها — إلى أن يماتها القائل والسامع — يسيرة . والأفعالُ الحمودةُ  
 ١٥ متصلةُ النفع والشرفِ والفضيلة في الحياة وبعد الوفاة ومذخورةٌ للأعقابِ وحديثُ  
 جميلٌ ونشرٌ باقٍ على مرِّ الجديدين . وأكثرُ من ذلك كلّهُ توفيقُ الله وتسديده ،  
 فإن القلوبَ في يده والخيراتُ مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل (\*)

(٦) نفعه ٢ — (١١) < منه > : أضفناه — (١٢) لعلمه الصواب : ويحطب

نفعه — (١٤) بسره ٢

(\*) تم كتاب كتاب السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعون الله وتأييده  
 ومشيئته وتوفيقه والله الموفق للصواب برحمته ، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا  
 محمد وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

## رسالة في الجَدِّ والهزل

من تصنيف

٣

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- (\*) جُعِلْتُ فِدَاكَ ، ليس من أجل اختياري الذَّخَلَ على الزرع أنصيتني ٦  
ولا على مَيْلِي إلى الصَّدَقَةِ دون إعطائي الخراج عاقبتني ولا لُبُغضِي دَفْعَ الإِثَاوَةِ  
والرِّضَا بِالْجِزْيَةِ حَرَمَتْنِي ، (†) ولستُ أَدْرِي لِمَ كَرِهْتَ قُرْبِي وَهَوَيْتَ  
بُعْدِي واستنقلت رَوْحِي ونَفْسِي واستطلت عُجْرِي وَأَيَّامَ مُقَاتِي ، وَلِمَ سَرَّكَ ٩  
سَيِّئَتِي وَمُصِيبَتِي وساءتكَ حَسَنَتِي وسَلَامَتِي ، نَمَ حَتَّى سَاءَتْكَ عَزَائِي وَتَجَمَّلِي  
بِقَدْرِ مَا سَرَّكَ جَزَعِي وَتَضَجَّرِي ، وَحَتَّى تَمْنَيْتَ أَنْ أُخْطِيَّ عَلَيْكَ فَتَجْعَلَ خَطَأِي  
حُجَّةً لَكَ فِي إِبْعَادِي وَكَرِهْتَ صَوَابِي فَبِكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ ذَرِيعَةً لَكَ ١٢  
إِلَى تَقْرِبِي . فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ وَكَانَ هُوَ السَّبَبُ لِمَوْجَدَّتِكَ ،

(٦) [اجل] م — (٨) رأيك أبقاك الله قد كرهت ب (في ابتداء الرواية) —

(١٠) نعم م : [ ] — مزانم م : [ ] — (١٢) [لك] م — (١٣) تقرى م —

فإن كان ... لموجدتك م : [ ] —

(\*) (٦-٦٢ ، ٢) جعلت ... الجرعة : رواية م ١

(†) (٨-٩) ولست ... مقامي : رواية ب ١

فليس — "جُعِلَتْ فِدَاكَ — هذا الحِقدُ في طبقة هذا الذنب ولا هذه المطالبة  
 من شكل هذه الجريمة . ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً وإذ لم يكن  
 عدله وقع مشبهاً ، كان أهون في موضع الضرر وأسهل في تخرج السماع . ٣  
 (\*) فأى شيء بقيت للعدو المكاشف وللمنافق الملاحف "وللمعتد المصير"  
 "وللقادر المدل"؟ ومن عاقب على الصغير بعقوبة الكبير وعلى الهفوة بعقوبة  
 الإصرار وعلى الخطأ بعقوبة العمد وعلى معصية "المسير" بعقوبة معصية ٦  
 "المعلن"؟ ومن لم يُفرّق بين الأعلى والأسافل وبين الأفاضل والأداني عاقب  
 على الزنا بعقوبة "السرقَة" وعلى القتل بعقوبة القذف . ومن خرج إلى ذلك في  
 باب العقاب خرج إلى مثله في باب الثواب ، ومن خرج من جميع الأوزان ٩  
 وخالف جميع التعديل كان بغاية العقاب أحقّ "وبه أولى"

والدليل على شدة غيظك وغليان صدرك ، قوة حركتك وإبطاء  
 فترتك وبُعد الغاية في احتياالك . ومن البرهان على ثبات الغضب وعلى ١٢  
 كظم الذنب "تمسك الحقد ورسوخ الغيظ وبُعد الوتبة وشدة الصولة .  
 وهذا البرهان صحيح ما صحّ النظم وقام التعديل واستوت الأسباب .  
 (٢) ولا أعلم نارا أبلى في إحراق أهلها من نار الغيظ ولا حركة أنقض لقوة ١٥

(١) أبى الله م — (٢) من شكل م : شكل من م — (٤) أبقت م —  
 وللمصنوع — (٥) [وللقادر المدل] ولبن عاقب م — (٦) المسرب : المستمر ،  
 المستند — (٧) المعلن م : المعاند م — (٨) السرقَة م : السرقة م — (١٠) وبه  
 أولى م : به وأولى م — (١٢-١٣) على ثبات ... الذنب م : على بيان الغضب وعظم  
 الذنب م ، وكلتا القراءتين محرقة —

(\*) (٤) اجدهاء رواية م ٢ — (٧-٤) فأى ... المعلن : رواية ب ٢

(†) (١٥-١٦ ، ٤) ولا أعلم ... دون العام : رواية ب ٣

- الأبدان من طلب الطوائف مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجحام وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير . ولا أعلم تجارة أكثر خسرانا ولا أخف ميزانا ، من عداوة العاقل العالم وإطلاق لسان الجليس المُدَاخِل والشعار دون الدثار والخاص دون العام . والطالب — "جُعلتُ فداك" — بعرض ظفر ما لم يخرج المطلوب وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومن الحزم ألا تخرج إلى العدو إلا ومعك من القوى ما يغمر الفضلة التي "يُنْتَجِها له الإخراج . ولا بد أيضا من حزمٍ يحذرك مُصارع البغي "ويُخَوِّفك ناصر المظلوم" (\*)
- (†) وبعد — "أبقاك الله" — فأنت على يقين من موضع ألم الغيظ من نفسك ، والغیظُ عذابٌ ، وربما زاد التشقى في الغيظ ولم ينقص منه . ولست على يقين من نفوذ سهمك في "صيدك" كما أيقنت بموضع الغيظ من < صدرك . والحازم "لا يلتبس شفاء غيظه بأجتلاب ضيعفه" ولا يُطْفئ نار غضبه "تأخراً عقوبة من أغضبه ولا يسدّد سهمه إلا والغرض ممكن والغاية قريبة ولا يهرب والمهرب معجزة . إن سلطان الغيظ غشوم وإن حكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون العزم عن التصرف أضعف ما يكون الحزم . والغضب في طِباع شيطان والهوى يتصور في صورة امرأة ، فلا يُبصر
- ١٥

(٢-١) [مع قلة... من التدبير] ب — (٣) العالم م : [ ] د — (٤) أبقاك الله م — (٦) ما يغمر م : ما < لا > يغمر د — يفتحها م — (٧) ويخوفك م : ويحرك د — المطلوب م — (٨) [أبقاك الله] ب — موقع ب — [من نفسك] ب — (٩) وربما ب — (١٠) < ... > ب : سهمك في صدك د — (١١) لا يجتلب ب — [ولا يطفي ... أغضبه] ب — تأخر ، لعل الصواب : بأمر — (١٣) والمهرب معجزة ب ، < إلا > والمهرب معجزة د

(\*) اه رواية م ٢ — (†) (٨-١٣) وبعد ... معجزة : رواية ب ٤

(\*) ابتداء رواية ب ٥

مَسَاطِطُ الْعَيْبِ وَمَوَاقِعُ الشَّرَفِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدِلٍ الطَّبَاعِ وَمُعْتَدِلُ الْأَخْلَاطِ  
وَمُسْتَوَى الْأَسْبَابِ . (\*) وَاللَّهُ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ لَكَ سَرَفَ الرِّضَا مَخَافَةَ جَوَادِبِهِ  
إِلَى سَرَفِ الْهَوَى ، فَمَا ظَنُّكَ بِسَرَفِ الْغَضَبِ وَبَغْلَةِ الْغَيْظِ ، وَلَا سِيَّاهُ عَنْ قَدْ  
تَعَوَّدَ إِهْمَالُ النَّفْسِ وَلَمْ يُعَوِّدْهَا الصَّبْرَ وَلَمْ يُعْرِفْهَا مَوْضِعَ الْحِظِّ فِي تَجْرِيعِ  
مَرَارَةِ الْعَفْوِ . وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنَ الْأُمُورِ عَوَاقِبُهَا لَا عَوَاجِلُهَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَشْفَقُ  
عَلَيْكَ مِنْ إِفْرَاطِ السُّرُورِ فَمَا ظَنُّكَ بِإِفْرَاطِ الْغَيْظِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ :  
لَا خَيْرَ فِي طَوْلِ الرَّاحَةِ إِذَا كَانَ يُوْرِثُ الْغَفْلَةَ وَلَا فِي طَوْلِ الْكَفَايَةِ إِذَا كَانَ  
يُؤَدِّي إِلَى الْعَجْزَةِ وَلَا فِي كَثْرَةِ الْغَفَى إِذَا كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْبَلَدَةِ

(١) جُعِلْتُ فِدَاكَ ، إِنْ دَاءَ الْحُزْنِ وَإِنْ كَانَ قَاتِلًا فَإِنَّهُ دَاءٌ مُمَاطِلٌ  
وَسَقَمُهُ سَقَمٌ مُطَالٍ وَمَعَهُ مِنَ التَّهْمِيلِ بِقَدْرِ قَسَطِهِ مِنْ أَتَانَةِ الْمِرَّةِ السُّودَاءِ .  
وَدَاءُ الْغَيْظِ سَفِيهِ طَيِّاشٌ وَعَجُولٌ فَخَاشٌ يَمَجُّلُ عَنْ التَّوْبَةِ وَيَقْطَعُ دُونَ  
الْوَصِيَّةِ (\*\*) وَمَعَهُ مِنَ الْخُرْقِ بِقَدْرِ قَسَطِهِ مِنَ أَلْتِهَابِ الْمِرَّةِ الْحَرَاءِ .  
> وَالْعَجُولُ يُخْطِئُ وَإِنْ ظَفَرَ ، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا أَخْفَقَ . عَلَى أَنْ إِخْفَاقَهُ يَزِيدُ  
فِي حَقِيقَةِ خَطْئِهِ كَمَا أَنَّ ظَفْرَهُ لَا يَنْتَقِصُ مِنْ مَقْدَارِ زَلَّهِ < . وَأَنْتَ رُوحٌ كَمَا

(١-٣) [قد] تعود [إهمال] م — (٥) سرارته [العفو] م — وإناهم : وإن خ —  
(٦) [بعض] م — (٧) [طول] الكفاية د — (٨) الغنى م : التي د —  
(١٠) و > إن < سقم م — من التهميل م ، من التمسك م — آثار م — (١١) طائش  
ب — (١٢-١١) ويقتطع عن التوصية م — (١٢) من الخوف م —  
(١٣-١٤) < ... > ب فقط

(\*) ابتداء رواية م ٣ ، وانتهاء رواية م ٥

(†) (٩-١٤ زله) رواية م ٦

(\*\*) اه رواية م ٣

أنت وحشئ من قرنتك إلى قدماك ، وعمل الآفة في الدقاق والعِتاق  
أسرع وحدها عن الغلاظ الجفافة أكل . فذلك اشتدَّ جَزَعِي لك من  
سلطان النغيظ وغلبته

٣

والله لو كنتُ ابتلعتُ مراراً بآبك وأبطلتُ عمر الباطل ورددتُ  
الفظائع كلها ونقضتُ الشروط بأسرها وأفسدتُ نتاجك وقتلتُ كل  
شطنجي لك ورفضتُ من الدنيا فراهة الخليل وجعلتُ المروج كلها حشئ  
وكنتُ جذام المردان ورسام الأولاد ومسختُ جميع الجوارى في صورة  
أبي رملة ورددتُ شطاط خلقك إلى جعودة أبي حنة وكنتُ أول من سنَّ  
بيع الرجال في النخاسين وفتح باب الظلم لأصحاب المظالم وحوّلتُ إليك  
عقل أبي دينار وطبعتُ على بيان مانويه (\*) وأعنتُ على موت المعتصم  
وغضبتُ لمصرع الأفسنين واستجبتُ للذيك الأفرق وأحببتُ صالح بن  
حُنين وأحوجتُك إلى حاتم الريش وكان أبو السماخ صديق والفراسي  
من شيعتي > ورفضتُ حمزة رفسة شديدة وركلتُ عمر ركلة صعبة ، <  
لكان ما تركيتني به سرفاً ولكنك في هذا العقاب متعدياً

جُعلتُ فذاك ، لا تتعرض لعداوة عقلاء الرواة ولضعفينة حُفاظ  
المثالب وللسان من قد عرف بالصدق والتوخي وبقلة الخطأ والتكشيب ،

(٤) كذا في د وكلتا السكنتين محرفة — (٧) جذام المردان ، صحنا : صدق  
المردان د — (٨) أبي حنة د ولعله محرف — (١٠) والله لو كنت احتلت على موت ب —  
(١١) اصرع ب — للذيك الأفرق ب : للدين الأبيض د — (١٢) وأخرجتك إلى حاتم  
الرئيس ب — أبو السباح ب — (١٣) <ورفضت ... صعبة> ب — (١٤) ما تركيتني ،  
صحنا : ما تركيتني د — متدياً ب — (١٥) الرجال ب — (١٦) عرف المضرب ب —  
كذا ، ولعلها : التكدب ، أو التنكب

(\*) (١٠-١٦ عرف بالصدق) رواية ب ٧

ما وجدت عن ذلك مندوحة . ووجدت المذهب عنه واسعاً . ولا تعاقب  
 واداً وإن اضطرك الواد ، ولا تجعل طول الصُعبة سبباً للتضجر . وأصبر على  
 ٣ خلقه فإن خلقه خير من جديد غيره . وصداقة المستطرف عَزَّزْ وملاة  
 الصديق أن . والعلم بأقدار الذنوب غامض وحدود الذنوب في العقاب خفية .  
 ولن يعرف العقاب من يجهل قدر الذنب ، والأجرام كثيرة الأشكال ومتفاوتة  
 ٦ في الأقدار . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك  
 عليه ، فأنظر في علته وفي سببه وإلى معدنه الذي منه نجم وعُشه الذي  
 منه درج ومفرسه الذي فيه نبت ، وإلى جهة صاحبه في التتابع والتبرع وفي  
 ٩ النزوع والثبات ، وإلى فحته عند التقريع وإلى حيائه عند التعريض وإلى  
 فطنته عند الرشق والتودية . فإن فضل الفطنة ربما دل على فرط الاكتراث ،  
 وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . (\*) فكل ذنب كان سببه  
 ١٠ الدالة وضيق صدر وغلظ طباع وحدة مرار ، من جهة تأويل أو من  
 جهة غلط في التقادير أو من طريق < فرط > الأنفة وغلبة طباع الحمية من  
 بعض الجفوة أو لبعض الأثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زين  
 ١٥ له من عمله ، وأنه مقصربه مؤخر عن مرتبته ، أو كان مُبِلِّغاً عنه أو مكذوباً  
 عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا

(٣) غرر ، صحننا : غرور د — (٤) باقدار ، صحننا : باقرار د — (٦) الاقدار  
 صحننا : الأقدام د — (٨) لعل الصواب : التصرع — (١٠) كذا ولعلها : الرين  
 والتورية — (١٢) الصدر وعلو الطباع ب — [ من جهة تأويل ] ب — (١٣) الغلط  
 ب — < فرط > ب — (١٦-١٣) [ من بعض الجفوة ... ممتنع فيه ] ب —  
 (١٤) الأثرة ، صحننا : الآتوة د



- الشكل وعلى هذه الأسباب وفى هذه الجارى ، فليس يقف عليها كريم  
 < ولا يلتفت لها حليم > . ولست أسميه بكثرة معروفه كريماً ، حتى يكون  
 عقله غاسراً لعلمه وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك وعارقاً بما  
 أخذ . وأسم الحليم جامع للكظم والقدرة والفهم . فإذا وجدت الذنب بعد ذلك  
 لا سبب له إلا البغضة ، فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم ، لعدرك  
 كثير من العقلاء ولصوب رأيك عالم من الأشراف . ومتى كانت علتة طبيعية  
 الداء وخلقه الشرارة والتسرّع ، فأقتله قتل العقارب وأدمنه دمع رؤوس  
 الحيات . وإذا كان ممن لا يسىء فيك القول ولا يرصدك بالمكروه ،  
 إلا لتعطيه على الخوف وتمنع عرضك من جهة التقية ، فأمنه جميل  
 رفدك وأحتل في منعه من قبل غيرك ، فإنك إن أعطيته على هذه  
 الشريطة وأعظمته من هذه الحكومة ، فقد شاركته في سب نفسك  
 واستدعيت الألسنة البذيئة إلى عرضك وكنت عوناً لهم عليك . وكيف  
 ١٢ تعاقبه على ذنب لك شطره وأنت فيه قسيمه ، إلا أن عليك غرمه وله غنمه  
 (\*) ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحط عن الحسود  
 نصف عقابه وأن تقتصر منه على < بعض > مقداره ، لأن ألم  
 ١٥ حسده لك قد كافك مؤونة شطر غيظك عليه  
 وأما الواد فلا تعرض له البتة < ولا تلتفت لفته > ولو أتى على الحرث

(١) < ولا يلتفت لها حليم > ب - (٩) التقية ، صححنا : النقة د - (١٣) قسيمه ،  
 صححنا : قسه د - (١٤) يحط من ب - (١٥) يقتصر على مقداره د - (١٦) شطر  
 ب : سطو د - (١٧) فأما ب - < ولا تلتفت لفته > ب

والنسل وجنى على الروح والقلب ، ولا تغترّ بقوله إني وادّ " ولا تحكم له  
 بدعواه : إني جدّ وامق " ، وأنظر أنت في حديثه وإلى مخارج لفظه " وإلى  
 ٣ لحن قوله (\*) وإلى طريقته وطبيعته وإلى خلقه وخليقته وإلى تصرّفه  
 وتضمّنه وإلى توقّعه وتهوّره ، وتأمل مقدار جزعه من قلة اكتراثه وأنظر  
 إلى غضبه فيك ولك وإلى انصرافه عنّ انصرف عنك وميله إلى من مال  
 إليك وإلى تسلّسه من الشرّ وتعرّضه له وإلى مُداهنته وكشف قناعه .  
 ٦ بل لا يقضى له بجماع ذلك ما كان ذلك في أيّام دولتك ومع إقبالٍ من  
 أمرك ، وإن طالت الأيام وكثرت الشهود حتى تنتظم الحالات وتستوى  
 ٩ فيه الأزمان . نعم ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على  
 محبّتك ومحنّوة على نصيحتك بالعلل التي توجب الأنفال والأسباب التي  
 تسخر القلوب للمودّات ، كالعلل الثابتة في الصنعة والأسباب الموجودة مع  
 ١٢ مولى الصّفاة . فإنّ عللها خلاف علل مولى الكلالة ، وخلاف علل الصديق  
 الذي لم يزل يرى أنه مثلك وأنه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيّما إذا  
 كانت الصنعة أنت ابتدأتها وأنت أبو عذرتها . فإن أنت لم تحكم له بالفاية  
 ١٥ مع اجتماع هذه العلل فيه ومع توانيها إليه ، ولم تقض له بأقصى النهاية . مع  
 تراؤف هذه الأسباب وتكامل هذه الدلائل وتعاون هذه البرهانات ،  
 فكل خبر بيّنة زور وكل دلالة فاسدة . وقد قال الأول : دلائل الأمور  
 ١٨ أشدّ ثبوتاً من شهادات الرجال . إلّا أن يكون في الخبر دليل ومع الشهادة  
 برهان ؛ لأنّ الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة الإنسان

لا تمتنع من ذلك وليس معها أمان من فساد ، ما كان الإمكان قائماً

- وبعد ، متى صار اختيار الدخول على الزرع يُحَدِّد الإخوان ومتى صار  
تفضيل الحبّ وتقرُّب الثمر يورث الهجران ، ومتى تميَّزوا هذا التمييز وتهالكوا  
هذا التهلك ومتى صار تقديم الفخلة ملةً وتفضيل السنبلة فخلةً ، ومتى  
صار الحكم للفتنة نسباً والكرمة صهرًا ، ومتى تكون فيها ديانة وتستحكم  
فيها بصيرة وتحدث عنها حمية

- وقد كنا نعجب من حرب البسوس في ضرع نابٍ ومن حرب بُعَاث في  
مُخَرَفِ تمرٍ ومن حرب غطفان في سبق دابةٍ ، فحُثْنَا أَنْتَ بنوعٍ من العجب  
أبطال كلِّ عجب وأنسنا بكلِّ غريب وحسن عندنا كلَّ قبيح وقرب  
عندنا كلَّ بعيد . فإنْ هَلْتُ — أَعَزَّكَ اللهُ — غضبك فمثلُ جِهلٍ ما لآلة  
له ، وإنْ عَجَزْتُ عن احتمال عقابك فمثلُ ضجٍّ مما لا يطيق حمله ، ولا عازٍ  
على جازعٍ إلّا فيما يمكن في مثله الصبر ولا لومٌ على جاهلٍ فيما لا ينجح في  
مثله الفكر وليس هذا أولَ شركٍ نصبتَه ولا أولَ كيدٍ أرغمتَه ، ولا هي  
بأولَ زُبْيَةٍ غطيتها وسترتها وحيلةٍ أكتنيتها وربصتها . وقد كانت التقية  
والاقتصاد أسلم ، بل كان العفو أرحم والتغافل أكرم . ولا خير في عقوبة  
تُشِمُّ العدوَّ القادِمَ ويُنادي بها العدوُّ الحادِثُ ، والأناة أبلغ في الحزم وأبعد  
من الذمِّ وأحمد مغتبةً وأبعد من خرقِ العجلة . وقد قال الأول : عليك بالأناة  
فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُهُ أَفْدر منك على ردِّ ما قد أوقعته . وقد أخطأ

من قال :

(٤) فخلة ، صححنا : بحنة ② — (٥) وحق ② — (١٣) اربعة ② —

- قد يُدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
- بل لو قال : والمتأني بدرك حاجته أحقّ والمستعجل بقوت حاجته
- أخلق ، لكان قد وقى المعنى حقّه وأعطى اللفظ حظّه ، و <إن> كان القول
- الأوّل موزوناً والثاني منشوراً . ولولا أنه اشتقّ المستعجل من العجلة لما قرّنه
- بالتأني ، وينبغي أن يكون الذي غلّطه قولهم : رُبّ عجلة تهبّ ريثاً ، فجعل
- الكلام الذي خرج جواباً عندهما يعرض من السبب كالكلام الذي خرج ارتجالاً ،
- وجعله صاحبه مثلاً عامّاً . فإذا سميت العمل عجلةً وريثاً فأقضى على الريث بكثرة
- القوت وبقدر ذلك من العجز ، وعلى العجلة بقلة النجح وبقدر ذلك من
- الخرق . والريث والأناة في بلوغ الأمل وإدراك النعمة كاتهاز القرصة
- واهتيال الفتوة ، والأناة وإن طالت واتهاز القرصة وإن كان في غاية السرعة ،
- فليس من جنس العجلة . (\*) ورُبّت كلمة لا توضع إلّا على معناها الذي جعلت
- حظّه وصارت هي حقّه والدالة هي عليه دون غيره ، كالجزم والعلم والحلم
- والرفق والأناة والمدارة والقصد والعدل والانتهاز والاهتيال واليأس والأمن
- وَالخُرق والعجلة والمداهنة والتسرّع والغلوّ والتقصير . ورُبّت كلمة تدور مع
- خُلّتها وتقلب مع جاراتها وإرادة صاحبها وعلى قدر ما تقابل من
- الحالات وتلاقي من الأسباب ، كالحُبّ والبُغض والغضب والرضا والعزم
- والإرادة والإقبال والإدبار والحِدّ والفتور ، لأنّ هذا الباب الأخير يكون

(٢) لغوت ٢ — (٣) وكان ٢ — (٩) ودراك ٢ — (١٠) والمناهة ٢ —  
لعله سقط بعد « وإن طالت » : <فليس من جنس الريث> — (١٢) والدالة [هي] عليه  
م — كالجزم والحلم والعلم م — (١٣) والاهتيال م — (١٤) ورب م — (١٥) مع  
واصلتها م — جاراتها ٢ — صاحبها م — (١٧) والإرادة ، كذا ٢ م — والفتوة ٢

(\*) (١١) — (٦ ، ٧١) وربت كلمته ... ونبل صوابه : رواية م ٤

في الخير والشر<sup>١</sup> ويكون محموداً ويكون مذمومًا . وصاحب العجلة — "أعزك الله — صاحب تقرير ومخاطرة : "إن ظفر لم يحمد" عالم<sup>٢</sup> وإن لم يظفر قطعتة الملاوم<sup>٣</sup> . والريث أخو المعجزة ومقرون بالحسرة وعلى مدرجة اللائمة .<sup>٣</sup>  
وصاحب الأناة "إن ظفر نفع غيره بالثمن ونفع نفسه بشرة العلم ، وطاب ذكره ودام شكره وحُفظ فيه ولده ، وإن حُرِمَ فبسوط عذره ومُصَوَّبُ رأيه ، مع انتفاعه بعلمه وما يجد من عز حزمه ونبل صوابه<sup>(٤)</sup> ، ومع علمه<sup>٦</sup> بالذي له عند المقلاء ويعذره عند الأولياء والأعداء

وما عندي لك إلا ما قال الدهقان لأسد بن عبد الله — وهو على خراسان —  
حين مر به وهو يدهق في حبه : إن كنت تُعطى من ترحم فأرحم من تظلم .<sup>٩</sup>  
إن السموات تنفجر لدعوة المظلوم ، فأحذر من ليس له ناصر إلا الله ، ولا جنة إلا الثقة بنزول التغير ، ولا سلاح إلا الابتهال إلى مولى لا يعجزه شيء .  
يا أسدُ إن البغي يصرع أهله ، وإن الظلم مصرعه وخيم<sup>١٢</sup> ، فلا تغتر بإبطاء العقاب من ناصر متى شاء أن يُغيث أغاث<sup>١٠</sup> ، وقد أملى لقوم كي يزدادوا إثمًا .  
وجميع أهل السعادة إثمًا سالم من ذنب وإثمًا تارك الإصرار . ومن رغب عن التماذي فقد نال أحد الغنمين ، ومن خرج من السعادة فلا غاية له إلا دار<sup>١٥</sup> "الشقوة . وسواء — جعلت فداك — ظلمت بالبطش والغشم أو ظلمت بالدحس<sup>١١</sup> والدس<sup>١٢</sup> ، فشاوِر لُبَّك ، وناظر حَزَمَك ، وقِف قبل الوثبة ، وأحذر

(١-٢) أبقاك الله م — (٢) وإن ظفر — ماقل م — (٤) وإن ظفر —

وطاب ذكره ودام شكره — (٦) وقبل صوابه — (١٦) الشقوة ، صحنا :

الندوة — (١٧) لعل الصواب : الدس

- زَلَّةَ العالم . وقد قال صاحبكم : مَنْ استشار المَلَلَةَ وَقَلَدَ طَبِيعَتَهُ الاسْتِطْرَافَ  
 وجعل الخطرة ذنبًا والذنب ذنوبًا ومقدارَ الطرفة إصرارًا والصغيرَ  
 ٣ كبيرًا والقليل كثيرًا ، "عاقب على المتروك الذى لا يُعْبَأُ به ، وبلغ بالبطنش  
 إلى حيث لا بَقِيَّةَ معه ، ورأى أَنَّ القطيعة التى لا صِلَةَ معها والتخليج الذى  
 لا تَجْمَلُ معه الحزْمُ الحمود ، وأنَّ الاعتزام فى كل موضع هو الرأى الأصيل .  
 ٦ وقال أيضًا : (\*) "مَنْ كَانَتْ طَبِيعَتُهُ مَأْمُونَةً عَلَيْهِ عند نفسه ، وكان هواه رائدُهُ  
 الذى لا يكذبُه والمتأثر عليه دون "عقله ، ولم يتوكل لما يهواه على  
 ما لا يهواه ، ولم ينصر ثالثَ الإخوان على الطارف ، ولم يُنْصَفِ "الممول المبتعد  
 ٩ من المستطرف "المقرب" ، ولم يَخَفْ أَنْ "تجتذبه العادة" وتتحكم عليه الطبيعة ،  
 فليرسم حُجَجَهما ويصوِّرهما فى كتابٍ مقروء أو لفظٍ مسموع ، ثم يعرضهما  
 على جهابذة المعانى وأطبَّاء أدواء العقول ، على أَلَّا يَخْتَارَ "إِلَّا مَنْ لا يدرى  
 ١٢ أَى النوعين ينفى "وعلى أيهما يُحَامَى ، وأيهما دَاوَهُ" . فإن لم يستعمل ذلك ،  
 "بما فضل له مِنْ سُكْرِ سُوءِ العادة" ، لم يزل متورطًا فى الخطأ مغموًرًا بالذمِّ  
 سمعُك وأنت تريدنى وكأنك تريد غيرى ، "أو كأنك تُشير على من  
 ١٥ غير أن "تَنْصَحَنِى ، وتقول : إني لأعجب ممن ترك دفاتر عمله متفرقة

---

(٣) وعاقب ② — (٦) ومن كانت م — (٧) حقه م — (٧-٨) ولم يتوكل لما  
 يهواه ② ، ولم يتوكل لما لا يهواه على ما يهواه م — (٨) الممول : الملوكة ② م —  
 (٩) والمقرن م — تجذبه م — (١٠) مقروء صحنا : مفرد ② ، مقرر م —  
 (١١-١٢) إلا من [ ٧ ] يدرى أى النوعين يتقو [ على ] أيهما يحامى وأيهما يداوه وأيها  
 دواؤه م — وعلى ، لعل الصواب : وعن — (١٣) [ بما فضل . . . العادة ] م —  
 بالذنب م — (١٤) أو كأنك م : وكأنك ② — (١٥) نصي ② م

- مُثَوِّثَةً وكراريسَ درسه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتخرُّم وكيف لا يمنحها من التمرُّق ، وعلى أن الدفتر إذا انقطعت حرَّامته وانحلَّ شِدَّاده وتخرَّمت رُبُطه ولم يكن دونه وِقَايةٌ ولا جَنَّةٌ تفرِّق ورقه ، وإذا تفرَّق ورقه اشتدَّ جمعه وعسرَ نظمه وامتنع تأليفه ، ور بما ضاع أكثره .  
والدَّفَتَانِ أجمع وضمُّ الجلود لما أصونُ والعَزَمَ لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تنظم وللأشسباه أن تؤلَّف ، فإنَّ التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حُسْنًا والاجتماع يحدث للتساوى في الضعف قوة (\*) . فإذا فعلتَ ذلك صِرتَ متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ، فإنَّ أنشطة لقراءة جميعها مضيت فيها . وإذا كانت منظومةٌ ومعروفة المواضع معلومةٌ ، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها ولا تقتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخَفَّت عليك مؤونتها وقلَّت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرِك وأدَّخرت تلك القوة لنوابغ غيرِك . وعلى أن ذلك أدلُّ على حُبِّك للحلم واصطناعك للكتب ، وعلى حُسن السياسة والتقدُّم في إحكام الصناعة . وقلت : لأمر ما جمعا أسباع القرآن وسُوْرَه في مُصحفٍ ، ولم يدعوا ما فيه مُفرِّقا في الصدور ولا مُبَدِّداً في الدفاتر ومُفرِّقا في القماطر ، على ذلك أجمع المسلمون والسابقون الأولون والأئمة الرشيدة والجماعة المحمودة ، فتوارثه خَلَفٌ عن سَلَفٍ وتابعٌ عن سابقٍ وصغيرٌ عن كبيرٍ وحديثٌ عن قديمٍ . ولم أشك في أنها نصيحةٌ حازمةٌ ومشورةٌ واميَّةٌ ،

(١) [مُثَوِّثَةٌ | م — (٢) التحريم — (٣) سباده م — ولا <دونه>

جنة م — (٤-٣) و [إذا تفرق ورقه] اشتد م — (٤) و [ربما] ضاع م —

(٥) إليها أصون د — والحرز د — (٦) تنظم <والدفتان> د

أَوْ رَأَى حَقَرَ أَوْ حَكَمَةً نَبَغَتْ أَوْ صَدْرُ جَاشٍ فَلَمْ يَمْلِكْ أَوْ عِلْمٌ فَاضٍ فَلَمْ  
 يُرَدِّدْ ، اسْتَعْمَلَهُ مَنِ اسْتَعْمَلَهُ وَتَرَكَهُ مَنْ تَرَكَهُ . فَلَمَّا أَخَذْتُ بِقَوْلِكَ وَصِرْتُ  
 ٣ إِلَى مَشُورَتِكَ ، وَأَكْثَرْتُ حَمْدَ اللَّهِ عَلَى إِفَادَتِكَ مِنَ الْعِلْمِ وَحَظِّ عِنَايَتِكَ مِنْ  
 النِّقْلِ ، وَجَعَلْتُ الْبَعْضَ إِلَى الْبَعْضِ وَالشِّكْلَ إِلَى الشِّكْلِ ، وَتَقَدَّمْتُ فِي  
 اسْتِجَادَةِ الْجُلُودِ وَفِي تَمْيِيزِ الصُّنَاعِ وَفِي تَخْيِيرِ السَّاعَاتِ ، وَغَرِمْتُ  
 ٦ الْمَالَ وَشَغَلْتُ الْبَالَ ، وَجَعَلْتُهَا مُصَحِّفًا مُصَحِّفًا وَأَجَلْتُهَا صِنْفًا صِنْفًا ، وَرَأَيْتُ  
 أَنِّي قَدْ أَحْكَمْتُ شَأْنِي وَجَعَلْتُ لِي أَقْطَارِي ، وَرَأَيْتُ أَنَّ أَنْظَرَ فِيهَا وَأَنَا  
 مُسْتَقِلٌّ وَلَا أَنْظَرَ فِيهَا وَأَنَا مُنْتَصِبٌ ، اسْتَظْهَرْتُ عَلَى تَعَبِ الْبَدَنِ ، إِذْ كَانَتْ  
 ٩ الْأَسَافِلُ مُثْقَلَةً بِالْأَعَالِي ، وَإِذَا كَانَ الْإِنْتِصَابُ يُسْرِعُ فِي إِدْخَالِ الْوَهْنِ عَلَى  
 الْأَصْلَابِ ، وَلَئِنَّ ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى نُورِ الْبَصَرِ وَأَصْلَحَ لِقُوَّةِ النَّظَرِ ، إِذَا كَلَّ  
 وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الْمَصَاحِفِ قَدْ أَحْزَى يَدِي بِثِقَلِ جِرْمِهِ وَضَيَّقَ صَدْرِي بِجَفَاءِ حَجْمِهِ ،  
 ١٢ وَإِذَا ثَقُلَ أَنْكَأُ الصَّدْرِ وَأَوْهَنَ الْعَظْمُ . وَإِذَا أَنَا إِنْ نَظَرْتُ فِيهَا وَأَنَا جَالِسٌ  
 سَدَرْتُ عَيْنِي وَتَقَوَّسَ ظَهْرِي وَأَجْتَمَعَ الدَّمُ فِي وَجْهِهِ وَأَكْرَهْتُ بَصْرِي  
 عَلَى غَيْرِ جِهَتِهِ وَأَجْرَيْتُ شُعَاعَ نَازِلِي فِي غَيْرِ مُجْرَاهِ . وَقَدْ عَلِمْتُ — أَبْقَاكَ  
 ١٥ اللَّهُ — مَعَ خَيْرَتِكَ بِمَصَالِحِ الْأُمُورِ وَمَوَاقِعِ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ ثُمَّ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ  
 وَالْبِلَادِ ، أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى مَقْطَعِ جَبَلٍ أَوْ عَلَى شُرُفَاتِ قَعْرِ ، فَأَرَادَ رُؤْيَا  
 السَّمَاءِ عَلَى بُعْدِهَا وَجَدَ ذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِ سَهْلًا خَفِيفًا ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى  
 ١٨ الْأَرْضَ عَلَى قُرْبِهَا وَجَدَ ذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِ عِيًّا ثَقِيلًا . فَإِنْ بَدَأَ لِي أَنْ يُقَابَلَ  
 عَيْنِي بِهِ الْعَبْدُ أَوْ تَوَاجَهَتَنِي بِهِ الْأُمَّةُ كَلَّفْتُ أُخْرَقَ النَّاسَ كَفًّا وَأَقْلَمَهُمْ  
 وَقَفًّا وَأَكْثَرَهُمُ الْتِفَانًا وَأَحْضَرَهُمْ نُعَاسًا وَأَقْلَمَهُمْ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ثَبَاتًا



- وأجهلهم بمقدار الموافقة وللقادير المقابلة وبحطّ اليذِّ ورُفْهها وإمالتها ونَصْبها ، ثم رأيتُ في تضجُّرهم وتكسرهم وفرارهم منه ما صير تجسُّمى لثقل وزنه ومقاساتى لجفاء حَجْمه أهونَ على يذى وأخفَّ على قلبى . فإن ٣ تعاطيته عند ذلك بنفسى فشقاء حاضرٌ وإن ألزمته غيرى فغيظٌ قاتلٌ ، وحتى صارت الحال فيها داعيةً إلى ترك درسها والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة والمنافع الجامعة ، ومن شحذ الطبيعة وتمكين حُسن العادة . ولو لم يكن فى ذلك إلا الشغل عن خوض الخائضين والبعد عن هو اللاهين ، ومن الغيبة للناس والتمنى لما فى أيديهم ، لقد كان نفع ذلك كثيراً وموقعه من الدين والفرض عظيماً . ومتى ثقل الدرس تشاقت ٦ النفس وتقاست الطبيعة ، ومتى دام الاستئقال أحدث الهيجران ، وإذا تطاول الكدّ رسخ الزهد ، وفى ترك النظر عمى البصر ، وفى إهمال الطبيعة كلالٌ حدّ الطبيعة ، وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنه ١٧ على قدر غريزة العقل تصحّ الجوانح وتسقم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرك الجارحة ويتصرف اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرف يحدث العيٌّ ويظهر العجز ويُبْطِئُ الخاطر ، ومع ذهاب البيان يفسد البرهان ، ١٥ وفى فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين . فقد بلغت ما أردتُ ونلتُ ما حاولتُ ، فحسبك الآن من شجّ من بأسوك ومن قتل من يُقتل فيك
- (\*) جعلتُ فذلك ، إنه ليس يؤمى منك بواحدٍ وأنا على عقابك أوحُدُ ، ١٨

(١) فدفعها (١٣) لعلها : الجوارح — (١٥) البيان ، صحنا : البرهان —  
(١٨) [إنه] ب — يؤمى ؟ — واحداً ب — فى عقابك واحد ب

(\*) (١٨- ص ٧٦ ، ٣) جعلت ... بمطورة : رواية ب ١١

- وليس يُنجيني منك مَعْلٌ وَعَلِيٍّ وَلَا مُغَارَةٌ سَبْعٌ ، وَلَا قَرُ بَحْرِ وَلَا  
رَأْسُ طَوْدٍ ، < وَلَا سَنَى > وَلَا دَغْلٌ ، وَلَا دَخْلٌ وَلَا نَفَقٌ ، وَلَا  
مُغَارَةٌ وَلَا مَطْمُورَةٌ . وليس يُنجيني منك إِلَّا مُغَارَةُ الْمُهَلَّبِ ، فَإِنْ أَعْرَتْنِي ٢  
فَلَبَّهِ وَعَلِمَتْنِي حِيلَتَهُ وَأَمَكْنَتْنِي مِنْ سِكِّينِهِ ، وَإِلَّا فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ ابْتَلَعَتْهُ  
تِلْكَ الْحَيَّةُ . (١٠) وَلَا وَاللَّهِ إِنْ بِي قُوَّةٌ عَلَى الشُّعْبَانِ فَكَيْفَ التَّيْنِ ، < وَلَا عَلَى  
الْقُرَّةِ فَكَيْفَ الْأَصَلَّةِ > . أَعْفِنِي مِنْ حَيَّةِ الْمُهَلَّبِ ثُمَّ أَقْتُلْنِي أَيْ قَتْلَةَ ٦  
شَيْتَ . إِنْ احْتَرَسْتُ مِنْكَ أَلْقَيْتُ لِنَفْسِي كَدًّا شَدِيدًا وَغَمًّا طَوِيلًا ، وَطَالَ  
اغْتِرَابِي وَافْتِرَاقُ الْأَفَى ، وَتَعَرَّضْتُ لِلْعَسَدِ وَتَحَرَّشْتُ بِالسَّبَاعِ ، وَإِنْ ٨  
اسْتَرَسَلْتُ إِلَيْكَ لَمْ تَرَ أَنْ تَقْتُلْنِي إِلَّا شَرَّ قَتْلَةٍ وَأَلَمَهَا وَلَمْ تُعَذِّبْنِي إِلَّا بِأَشَدِّ  
النِّقَمِ وَأَطْوَلِهَا ، وَلَوْ أَرَدْتَ ذَبْحِي لَأَخَرْتِ الْكَائِلَ عَلَى الْمُرْهَفِ وَالطَّوِيلَ ٩  
عَلَى التَّضْدِيفِ ، حَتَّى كَأَنِّي عَلِمْتُ عَلَيْكَ شَاهَ مَاتَ أَوْ أَكَلْتُ سَبْعَةً ١٢  
وَأَطْعَمْتُكَ وَاحِدَةً

وَلَقَدْ تَقَدَّمْتَ فِي الْمَسْكَرِ وَاسْتَظْهَرْتَ عَلَيَّ فِي الْكَيْدِ ، حَتَّى تَوَلَّيْتَ ذَلِكَ  
فِي صِغَارِ كَتَبِي وَفِيَا لَا تَحْفَلُ بِهِ مِنْ دَوَامِ أَمْرِي ، وَعَلِمْتَ أَنَّ الدَّرْسَ ١٥  
لِلَّيْلِ وَأَنَّ الْإِلَّا ... .. لِلنَّهَارِ ، وَأَنَّ الْكِتَابَ لَا يُقْرَأُ لَيْلًا إِلَّا وَالنَّهَارَ

(١) مُغَارَب — (٢) < وَلَا سَنَى > : كَذَا فِي ب فَقَط وَيُظْهَرُ أَنَّهُ عَرَفَ —  
وَعَل (= وَغَلَ) ب — وَلَا وَحَل < وَلَا لَتَق > وَلَا نَفَق ب — (٣) مُغَارَب —  
(٥) أَرَى قُوَّةَ ب — (٦-٥) < ... > : كَذَا فِي ب فَقَط — (٨) وَفِرَاقُ ب —  
لِسَبَاعِ ب — وَإِنْ ب : فَان — (٩) وَالْأَلَمَهَا ب — (١٠) [ ذَبْحِي ] ب — الْكَائِلِ  
الْمُرْتَدِّ ب — وَالطَّوِيلَ عَلَى الدَّقِيقِ ب — (١١) عَمِلْتُ ب — شَافِئَانِ ب — عَصْرَةُ ب ،  
وَلَدَلِ الصَّوَابِ : تَسْمَةٌ — (١٥) بَيَانُ كَلِمَةِ أَوْ كَلِمَتَيْنِ فِي الْأَصْلِ ، وَعَلَى الْمَاهِشِ : حِرَاوُ  
بِ (٤) ، وَلَدَلِ الصَّوَابِ : « وَأَنَّ الْأَعْرَاضَ مِنْهُ » أَوْ مَا يَشْبِهُهُ

زاهرة والمصابيح مُقَرَّبَة ، وعلمت أن كل من ضعف بصره وكل نظرُه ،  
فإنه أبداً أقرب مصباحاً وأعظم نارا ، وأن الحرور المحترق والمعور  
المتهب واليابس التهافت ، إذا كان صاحب كتب ودرس فإنه لا يجد بداً ٣  
من الصبر على ما يُحرِّقه ويعميه ، أو الترك للقراءة فيها والتعرض لها ،  
فغيرتني بين العمى والجهل ، وما فيهما حظٌ لختارٍ

وقلت : إذا سخن بدنه سُجِن بوله ، وإذا سُجِن بوله جرح مثانته وأحرق  
كليته وطبخ فضول غذائه وجفف ما فضل عن استمرائه ، فأحاله حصاً  
قاتلاً وصحراً جامداً ، وهو دقيق القضيبي ضيق الإحليل ، فإذا حصاه  
يورثه الأمر ، وفي ذلك الأسر تلف النفس أو غاية التعذيب . وقلت : فإن ٩  
ابتليت بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب عنا فقد كفانا  
مؤونة الحيلة في أمره

جعلت فداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ، وما هذا التثنيع ١٢  
لغوامض المسألة والتعرض لدقائق المكروه ، وما هذا التغفل في كل شيء  
يُحْمَل ذِكْرِي وما هذا الترقى إلى كل ما يحط من قدرى ، وما عليك أن  
تكون كتي كلها من الورق الصيني ومن الكاغد الخراساني . قل لي لم ١٥  
زيّنت النسخ في الجلود ولم حشيتني على الأدم ، وأنت تعلم أن الجلود جافية  
الحجم ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلت وإن كان يوم لثقي استرخت ،  
ولولم يكن فيها إلا أنها تبغض إلى أربابها نزول الغيث وتكره إلى مالكيها ١٨  
الحيا لكان في ذلك ما كفى ومنع منها ، وقد علمت أن الزقاق لا يحط في

(٢) فإن د — (٣) انه د — (٤) والترك د — (٦) سجن د —  
(٧) جصا د — (٨) فاري خصاه د — (١٥) ورق الصيني د — (١٩) قد د

تلك الأيام سطرًا ولا يقطع فيها جلدًا . وإن نَدَيْتَ فضلًا عَنْ أَنْ  
تُمْطَرُ وفضلًا عَنْ أَنْ تَغْرُقَ ، اسْتَرَسَلْتَ وامتدَّتْ ، ومتى جَفَّتْ لَمْ تَعُدْ إِلَى  
٣ حالها إِلَّا مع تَقْبِضٍ شَدِيدٍ وَتَشْنُجٍ قَبِيحٍ . وَهِيَ أَتْنٌ رِيحًا وَأَكْثَرُ  
ثَمَنًا وَأَحْلَى لِلْفَسْخِ : بُغْشُ الْكُوفِيِّ بِالْوَاسِطِيِّ وَالْوَاسِطِيُّ بِالْبَصْرِيِّ ، وَتَعْتَقُ  
لِسْكَ يَذْهَبُ رِيحُهَا وَيَنْجَابُ شَعْرُهَا ، وَهِيَ أَكْثَرُ عُقْدًا وَعُجْرًا وَأَكْثَرُ  
٦ خَبَاطًا وَأَسْقَاطًا ، وَالصُّفْرَةُ إِلَيْهَا أَسْرَعُ وَسُرْعَةُ انْجِثَاقِ الْخَطِّ فِيهَا أَعْمُ .  
وَلَوْ أَرَادَ صَاحِبُ عِلْمٍ أَنْ يَحْمَلَ مِنْهَا قَدْرًا مَا يَكْفِيهِ فِي سَفَرِهِ لَمَّا كَفَاهُ حِمْلُ بَعِيرٍ ،  
وَلَوْ أَرَادَ مِثْلَ ذَلِكَ مِنَ الْقَطْنِيِّ لَكَفَاهُ مَا يَحْمَلُ مَعَ زَادِهِ . وَقُلْتُ لِي : عَلَيْكَ  
٩ بِهَا فَإِنَّهَا أَحْلَى لِلْحَكِّ وَالتَّغْيِيرِ ، وَأَبْقَى عَلَى تَعَاوُرِ الْعَارِيَةِ وَعَلَى تَقْلِيلِ الْأَيْدِي ،  
وَلِرَدِّ يَدَيْهَا ثَمَنٌ وَلَطَرُ سَهْمِهَا مَرْجُوعٌ ، وَالْمُعَادُ مِنْهَا يَنْوِبُ عَنِ الْجَدُّدِ . وَلَيْسَ  
لِدِفَاقِ الْقَطْنِيِّ أَثْمَانٌ فِي السُّوقِ وَإِنْ كَانَ فِيهَا كُلُّ حَدِيثٍ طَرِيفٍ وَلَطْفٍ  
١٢ مَلِيحٍ وَعِلْمٍ نَفِيسٍ ، وَلَوْ عَرَضَتْ عَلَيْهِمْ عِدْلُهَا فِي عَدَدِ الْوَرَقِ جُلُودًا ، ثُمَّ كَانَ  
فِيهَا كُلُّ شَعْرٍ بَارِدٍ وَكُلُّ حَدِيثٍ غَثٍّ ، لَكَانَتْ أَثْمَنَ وَلَكَانُوا عَلَيْهَا أَسْرَعَ .  
وَقُلْتُ : وَعَلَى الْجُلُودِ يُعْتَمَدُ فِي حَسَابِ الدَّوَاوِينِ وَفِي الصِّكَاكِ وَالْعُهُودِ وَفِي  
١٥ الشُّرُوطِ وَصُورِ الْعَقَارَاتِ ، وَفِيهَا تَكُونُ نُمُودَجَاتُ النُّقُوشِ وَمِنْهَا تَكُونُ  
خَرَائِطُ الْبُرْدِ ، وَهَنْ أَصْلَحُ لِلْجُرْبِ وَلِعِصَاصُ الْجَرَّةِ وَسِدَادُ الْقَارُورَةِ .  
وَزَعَمْتُ أَنَّ الْأَرْضَ إِلَى الْكَاغِدِ أَسْرَعُ ، وَأُنْكَرْتُ أَنَّ تَكُونَ الْفَارَةَ إِلَى الْجُلُودِ  
١٨ أَسْرَعَ ، بَلْ زَعَمْتُ أَنَّهَا إِلَى الْكَاغِدِ أَسْرَعُ وَلَهُ أَفْسَدُ ، فَسَكَنْتَ سَبَبَ الْمَضَرَّةِ  
فِي اتِّخَاذِ الْجُلُودِ وَالِاسْتِبْدَالِ بِالْكَاغِدِ ، وَكُنْتُ سَبَبَ الْبَلِيَّةِ فِي تَحْوِيلِ الدِّفَاقِ

الخفاف في الحويل إلى المصاحف التي تُنقل الأيدي وتَحطِم الصدور وتَقوَس  
الظهور وتعمى الأبصار . وقد كان في الواجب أن يدعَ الناسُ اسمَ المُصحفِ  
للشيء الذي جَمَعَ القرآنَ دون كلِّ مجلِّد ، وألا يروموا جمع شيء من أبواب ٣  
التعلم بين الدفتين فيلحموا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم

دع عنك كلَّ شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولدٌ يُحيي ذكري ويَحوي  
ميراثي ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي ، ولا يأكله مرأى يرصُدني وابن عمٌ ٦  
يَحسدني ، ولا يرتعُ فيهِ المعدّلون في زمان السوء ، ولا تُصْطَفِ فيه  
الرجال ويقضى به الزِمام ، فقد رأيتُ صنيعهم في مال المفقود والمناعة والوارث  
الضعيف ومن مات بغير وصية ٩

جُعِلَتْ فِداك ، إنَّ النفوس لا تجود لمولى الكلالة بما تجود به لأولاد  
الأصلاب وما مسَّ تلك الأصلاب ، لأنَّ الرحمَ الماسة والقراية الملتصقة  
والأحمة الملتحمة وإن أملت التركة ونازعت إلى الوِثْ فَعَهَا ما يَطرُها ١٢  
ويثنيها ويحزُنُها ويُبكيها ويحرك دَمَهَا ويستغزِر دمعها . وقد يَشْفَع  
للولد إلى أبيه "حال أبيه كانت من أبيه وابن العم الذي ليس بالبعيد فيحتك  
من حسده وليس بالقرب الحنو على رحمه . وسببه الجاذب له إلى تمقّي ١٥  
مما أمّن من سببه إلى تمقّي بقاى ، فهو إلى الحال الموجبة للقسوة للقسوة  
واللفظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرفقة والعطف ، وليس ينصرك إذا  
نصرك ولا يُحامي عليك لقربته منك ، ولكن لعلمه بأنه متى خذلك حلّ به ١٨

(٧) ولا يرقع ② — ولا يصطنع فيه الرجال ③ — (٨) والضاعة ، لعل الصواب :  
و <مولى> التباعة — (١٢) المورث ④ — (١٣) ويثبتها ⑤ — ويحول ⑥ —  
(١٤) كذا في ⑦ وظاهره أنه محرف — لعل الصواب : فيفتك ⑧ — (١٥) وسبب الجاذب ⑨

- صَعَفَكَ وَأَجْتَرَأَ بَعْدَ صَعَفِكَ عَلَيْهِ عَدُوَّهُ ، فَهُوَ يَرِيدُ بِنَصْرِهِ مَنْ لَا يَجِبُ  
 عَلَيْهِ شُكْرُهُ ، وَيُقَوِّىَ ضَعْفَ غَيْرِهِ يَدْفَعُ الضَّعْفَ عَنْ نَفْسِهِ
- ٣ جُعِلَتْ فِدَاكَ ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ بَنِي صَغِيرٍ يَكُونُ لِي ، وَلَا سَيِّئًا وَلَسْتُ  
 عِنْدَكَ مِمَّنْ يَذْرُكُ كَسْبَهُ أَوْ تَبْلُغُ نَصْرَتَهُ أَوْ يُعَايِنُ بَرَّهُ أَوْ يُؤَمِّلُ إِمْتَاعَهُ .
- ٦ وَمَا كَانَ عَلَيْكَ مَعَ كِبَرِ سِنِّي وَضَعْفِ زُكْنِي أَنْ يَكُونَ لِي رِيحَانَةٌ  
 أَشْمُهَا وَثَرَةٌ أَضْمُهَا ، وَأَنْ أَجِدَ إِلَى الْأَمَانِي بِهِ سَبِيلًا وَإِلَى التَّأَهُيِّ سُلْمًا ، وَأَنْ  
 تُسَكَّرَ لِي مِنْ جِنْسِ سُرُورِ الْحَالِمِ وَبِقَدْرِ مَا يُجْتَمِعُ بِهِ رَاجِي السَّرَابِ اللَّامِعِ ،  
 حَتَّى حَبَبَتْ قِصْرَ عَمْرِي إِلَى وَلِيِّي وَشَوَّقَتْهُ إِلَى ابْنِ عَمِّي ، وَحَتَّى زِدْتَ فِيمَا  
 عِنْدَهُ مَعَ كَثْرَةِ مَا عِنْدَهُ ، وَحَتَّى صَيَّرْتَنِي حُبَّهُ لِمَوْتِي إِلَى حُبِّ مَوْتِهِ وَتَأْمِيلُ  
 مَالِي <إِلَى> تَأْمِيلُ فَقَرِهِ ، وَحَتَّى شَغَلْتَنِي عَنْ مَنْ كَانَ يَشْغُلُ عَدُوِّي عَنِّي .
- ١٢ وَسَوَاءٌ أَعِيبَتْ عَلَيَّ أَنْ لَا يَكُونَ لِي وَلَدٌ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ، أَوْ عِيبَتْ عَلَيَّ أَنْ  
 لَا يَكُونَ بَعْدَ أَنْ كَانَ — فَإِنَّمَا يَعْذَبُ اللَّهُ عَلَى النَّيَّةِ وَالْقَصْدِ وَعَلَى التَّوْحَى  
 وَالْعَمْدِ — \* كَمَا أَنَّهُ سَوَاءٌ أَنْ تَحْتَالَ فِي الْآلَا يَكُونَ لِي مَالٌ قَبْلَ أَنْ  
 أَمْلِكُهُ أَوْ احْتَلْتَنِي فِي الْآلَا يَكُونَ بَعْدَ أَنْ مَلَكَتُهُ . وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا كَانَ  
 ١٥ وَجْهُ حُبِّكَ لِإِعْنَاتِي وَلِلتَّشْيِيدِ بِذِكْرِ تَرَاتِي وَالتَّنْوِيهِ بِأَسْمَى ، وَلَا لَمْ زَهْدَتَنِي  
 فِي طَلَبِ الْوَلَدِ وَرَغْبَتَنِي فِي سِيرَةِ الرُّهْبَانِ ، فَإِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْفَعْ ذِكْرِي فِي  
 الْأَغْنِيَاءِ إِلَّا لَتَعَرَّضَ ذَنْبِي لِلْفُقَرَاءِ ، وَلَمْ تُسَكِّرْ مَالِي إِلَّا لَتَقْوَى الْعَلَّةُ فِي  
 ١٨ قَتْلِي ، فَيَا لَهَا مَكِيدَةً مَا أَبْعَدَ غَوْرَهَا وَيَا لَهَا حَفْرَةً مَا أَبْعَدَ قَعْرَهَا ، (٥) لَقَدْ  
 جَمَعَ هَذَا التَّيْدِيرُ لُطَافَةَ الشَّخْصِ وَدِقَّةَ الْمَسَالِكِ وَبُعْدَ الْغَايَةِ

(١٠) <إِلَى> سَقَطَ مِنْ ٥ — (١٣) وَكَأَنَّ ٥ — (١٩) وَبِعْدَ الْفَوْرِ وَدِقَّةَ الْمَسَالِكِ ب

(٥) (١٨- ص ٨٢ ، ٤) لَقَدْ جَمَعَ ... تَعَاثُرَ : رَوَايَةُ ب ١٣

والله لو دبرها الإسكندرُ على دارا بن دارا ، وأستخرجها المهلب على سفيان  
ابن الأبرد ، وفتحت على هرثمة في مكيدة خازم بن خزيمه ، \*ولو دبرها لقيم  
\*ابن لقمان على لقمان بن عاذ ، \*ولو أذاعها قيس بن زهير على حصن بن حذيفة ، ٣  
\*ولو توجهت لكهنان بنى أسد على دهاة قريش ، \*لقد كان ذلك من  
تديبرهم نادراً <بديماً> وكان في مكائدهم شاذاً غريباً ، وإنها لترفع عن  
قصير في كيد الزبأ . وعن جذيمة في مشاورة قصير ، \*وما إخالها إلا وتدق  
على ابن العاص وتغمض على ابن هند ويكل عنها أخو ثقيف ويستسلم  
لها ابن سميّة . هذا والله التدبير ، لا مخاريق العراف \*وتراوير  
\*الكاهن وتهاويل الحاوي ، ولا ما ينتجها صاحب الزرق (؟) ، بل تغل ٦  
فيها رقى الهند وتقربها سحرة بابل

\*فلو كنت — إذ أردت ما أردت وحاولت ما حاولت — رفعت قبل  
كل شيء اللؤانسة ، \*ثم أبيت للمؤاكلة ، \*ثم قطعت البر ، \*ثم أذنت مع العامة ، ١٢  
\*ثم أعلمت الحرمان ، \*ثم صرحت بالجفوة ، \*ثم أمرت بالحجاب ، \*ثم صرمت  
الحبل ، \*ثم عادت واقتصدت ، \*ثم من بعد ذلك كله أسرفت واعتدت ،  
لكننت واحداً ممن يصير أو يجزع . فلعلني كنت أعيش بالرفق وأتبلغ ١٥  
بحشاشة النفس \*وأغلل نفسي بالطمع الكاذب . ولكن فجأت الحوادث

(٢) وفتحت ② ، وسحب ب — أو دبرها ب — (٣) [بن لقمان] ب — وأذاعها  
ب — حصين ب — (٤) و [لو] توجهت ب — [لقد] ب — (٥) [بديماً] ② ،  
نادراً <بديماً> وشاذاً غريباً ب — (٦) وعن ب . عن ② — مساورة ب — وتثق  
ب : ستدق ② — (٨) وتراويق ② — (٩) الكهنان ب — الحان ب — ينتجها صاحب  
الدين ب ، يتحلها صاحب الرى ② ، ونرجح أن يكون الصواب «الزرق» أى الخدعة —  
(١١) ولوب — إف ، صحنا : إذا ② ب — (١٢) [ثم أبيت ... العامة] ب —  
(١٤) [ثم عادت .. واعتدت] ب — (١٥-١٦) [أو يجزع ... الكاذب] ب

وَبَقَاتِ الْبَلَاءَ ، لَا يَقُومُ لَهَا الْحَجَرُ الْقَاسِيُ وَلَا الْجَبَلُ الرَّاسِيُ ، فَلَمْ تَدْعْ غَايَةَ  
 فِي صَرْفِ مَا بَيْنَ طَبَقَاتِ التَّعْذِيبِ إِلَّا أَتَيْتَ عَلَيْهَا وَلَا فَضُولَ مَا بَيْنَ قَوَاصِمِ  
 الظَّهِيرِ إِلَّا بَلَّغْتَهَا ، فَقَدْ مِتُّ الْآنَ فَمَعَ مِنْ تَعِيشٍ ، > بَلْ قَدْ قَتَلْتَنِي فَمَنْ  
 الْآنَ تَعَاشِرُ ! < . كَمَا قَالَ دِيوَسْتُ اللَّغْنِيُّ لِكِسْرَى حِينَ أَمَرَ بِقَتْلِهِ لِقَتْلِهِ تَلْمِيزُهُ  
 "بَلْهَذِ : قَتَلْتَ أَنَا بَلْهَذِ وَتَقْتَلْنِي ، فَمَنْ يُطْرِبُكَ ؟ قَالَ : حَلَّوْا سَبِيلَهُ فَإِنَّ  
 الَّذِي بَقِيَ مِنْ عَمْرِهِ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَهُ بِهَذِهِ الْحِجَّةِ . وَلَكِنِّي أَقُولُ : قَدْ قَتَلْتَنِي فَمَعَ  
 مِنْ تَعِيشٍ ؟ أَمَعَ الشُّطْرُنَجِيُّينَ ؟ فَقَدْ قَالَ جَالِينُوسُ : إِيَّاكَ وَالِاسْتِمْتَاعَ بِشَيْءٍ  
 لَا يَمُتُ نَفْعُهُ

١ (\*) [ إِنْ الْكَلَامَ إِنَّمَا صَارَ أَفْضَلَ مِنَ الصَّمْتِ لِأَنَّ نَفْعَ الصَّمْتِ لَا يَكَادُ  
 يَعْدُو الصَّمْتَ . وَنَفْعُ الْكَلَامِ يَمُتُ الْقَائِلَ وَالسَّامِعَ وَالْغَائِبَ وَالشَّاهِدَ وَالرَّاهِنَ  
 وَالْغَائِبَ . قَالُوا : وَمَا يَدُلُّ مِنْ فَضْلِ الْكَلَامِ عَلَى الصَّمْتِ أَنْكَ بِالْكَلَامِ تُخْبِرُ  
 عَنِ الصَّمْتِ وَفَضْلِهِ وَلَا تُخْبِرُ بِالصَّمْتِ عَنْ فَضْلِ الْكَلَامِ . وَلَوْ كَانَ الصَّمْتُ  
 أَفْضَلَ . لَكَانَتِ الرِّسَالَةُ صَمْتًا وَلَكَانَ عَدَمُ الْقُرْآنِ أَفْضَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ  
 فَرَّقَ بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَضَّلَ وَمَيَّزَ وَحَصَّلَ . حَيْثُ قَالَ :  
 ١٥ رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا قَالَ خَيْرًا فَنَقِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ . فَجَعَلَ حَظَّ السَّكُوتِ السَّلَامَةَ  
 وَحَدَّهَا ، وَجَعَلَ حَظَّ الْقَوْلِ الْجَمْعَ بَيْنَ الْغَنِيمَةِ وَالسَّلَامَةِ ، وَقَدْ يَسْلَمُ مِنْ  
 لَا يَغْنَمُ وَلَا يَغْنَمُ إِلَّا مِنْ سَلَامٍ ]

(٣-١) [ فَلَمْ تَدْعِ ... بَلَّغْتَهَا ] ب — (٣) قَدْ يَمِيشُ ب — (٤) > بَلْ قَدْ ...  
 تَعَاشِرُ < ب — (٥) بَلْهَذِ (مَرْتَبَيْنِ) — (٩) [ إِنَّمَا الْكَلَامُ ] — (١١) لَعَلَّ الصَّوَابَ :  
 عَلَى فَضْلِ — لِأَنَّكَ بِالْكَلَامِ ]

(\*) نَرَجِعُ أَنَّ الْفَصْلَ مِنْ سَطْرِ ٩ [ إِنْ الْكَلَامُ ] إِلَى سَطْرِ ١٧ (مِنْ سَلَمٍ) لَيْسَ فِي  
 مَكَانِهِ وَلَمَّا مَأْخُوذٌ مِنْ رِسَالَةٍ أُخْرَى لِلْبَاحِظِ



فَأَمَّا الدُّوَابَّ فَمَنْ يَضَعُ الْمَرْكَبَ الْكَرِيمَ إِلَى الصَّاحِبِ الْكَرِيمِ ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِمْتَاعَ بِهِمَّةٍ بِإِمْتَاعِ أَدِيبٍ ؟ قَالَتْ أَبْنَةُ الْفَنَّانِ . لَمْ تَرَفِيَا جَرِّبْنَا مِنْ جَمِيعِ الْأَصْنَافِ أَيْلُغَ فِي خَيْرٍ وَشَرٍّ مِنْ صَاحِبٍ . وَلَمَّا عَزِمَ ابْنُ زِيَادٍ عَلَى الْحَقْنَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ نَفَحَ شَهْمَهَا قَالَتْ لَهُ حَارِثَةُ بْنُ بُدْرٍ : مَا أَجْدَ أَوْلَى بَتَوَلَّى ذَلِكَ مِنَ الطَّيِّيبِ . قَالَ عُمَيْدُ اللَّهِ : كَلَّا ، فَأَيْنَ الصَّاحِبُ !

- (\*) وَاللَّهِ لَوْ نَتَجَتَ فِي كُلِّ عَامٍ أَلْفُ شَبْدِيزٍ وَفُهِرَتْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ أَرْبَعَةٌ  
 'أَلْفَ رَزْبٍ' وَصَارَ لَكَ كُلُّ نَهْرٍ الْمَرْكَ بَدَلًا مِنْ بَعْضِ مَالِكَ ، وَأَكَلَتْ  
 رَأْسَ الْجَنْجِيدِ بْنِ حَاقِ الْأَشِيمِ . وَاحْتَلَتْ بَيْنَ الْفَرِّ مِنَ إِفْرَاطِ الشَّبَقِ ، لَمَّا كَانَ  
 يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُعَامِلَنَا بِهَذِهِ الْعَامِلَةِ وَلَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُقَتِّلَنَا هَذِهِ الْقَتْلَةَ .  
 وَلَوْ اقْتَصَرَتْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى شَيْءٍ دُونَ شَيْءٍ لَسَكَانُ أَعْدَلٍ وَلَوْ عَفَوْتَ الْبَثَّةَ  
 لَسَكَانَ أَمْثَلُ (\*) . إِنَّ الْأَعْتَزَامَ عَلَى قَلِيلِ الْعِقَابِ يَدْعُو إِلَى كَثِيرِهِ ، وَمَتَبَدَّى  
 الْعِقَابُ بِعَرَضٍ لِحَاجٍ ، وَلَيْسَ يُعَارَبُ إِلَّا غَضَبَانُ ، وَالْغَضَبُ يَغَابُ الْعِزْمَ عَلَى  
 قَدَرٍ مَا مَكَّنَّ وَيُحَيِّرُ اللَّبَّ بِقَدَرٍ مَا سَلَطَ ، وَالْغَضَبُ يُصَوِّرُ لِصَاحِبِهِ مِثْلَ  
 مَا يُصَوِّرُ السُّكْرُ لِأَهْلِهِ ، وَالْغَضَبَانِ يُشْعِلُهُ الْغَضَبُ وَيَغْلِي بِهِ الْغَيْظُ وَتُسْتَفْرَغُهُ  
 الْحَرَكَةُ وَيَمْتَلِئُ بِدَنِهِ رَعْدَةٌ وَتَنْزَائِلُ أَخْلَاطُهُ وَتَنْجَلُ عَقْدُهُ وَلَا يَعْتَرِيهِ  
 مِنَ الْخَوَاطِرِ إِلَّا مَا يَزِيدُهُ فِي دَانِهِ وَلَا يَسْمَعُ مِنْ جَلِيسِهِ إِلَّا مَا يَكُونُ مَادَّةً

(٦) الر تَجَتْ د — شبديز ب : سبديز د — وفهرت د : وأجلت ب —  
 (٧) ألف د ب — (٧-٨) [وصار لك ... الأشيم] ب — (٧) نهر المرك ... مالك :  
 كذا د ولم نوفق إلى تصحيحه ، راجع ص ٦٥ ، ٩٤ — (٨) واحتلت ... الشبق د :  
 واحتلت ابن الفر مع إفراط السبق ب ، وكلتا الروايتين ظاهرة التحريف — (٩) [أن  
 تعاملنا ... ينبغي أن] ب — تقتلني ب — (١٠) مع < هذه > العقوبة ب — [لسكان  
 أعدل ... البثة] ب

لصاده ، وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع واحترق حتى لا يفهم . ولولا  
 أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله ولا يقصر في عادته ، لما وسوس إلى  
 الغضبان ولا زين له ولما أغراه ولا فتح عليه ، إذ كان قد كفاه وبلغ  
 أقصى مئاه . وليس يُصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء إلا صرعه  
 ولا ينافزه قبل انتهائه وإدباره شيء إلا قهره ، وإنما يُحتال له قبل هيجه  
 ويؤتق منه قبل حركته ويُتقدم في حسم أسبابه وفي قطع علله . فأمّا إذا  
 تمكن واستفحل وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرة ومن  
 أعوانه سماً وطاعة ، فلو سعطته بالتوراة ووجرتة بالإنجيل ولددته  
 بالزبور وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً وأتيته بآدم عليه السلام شفيعاً ،  
 لما قصر دون أقصى قوته ولمتّى أن يعار أضعاف قدرته . وقد جاء في الأثر :  
 إن أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب . قال قتادة : ليس يسكن  
 الغضب إلا ذكر غضب الرحمن عز وجل . وقال عمرو بن عبّيد : ذكر  
 غضب الرب يمنع من الغضب . إلا أن يريد الذكر باللسان ، ويسمّى  
 المتوجد غضباناً والذكر كور حقوداً

- ١٥ (\*) فلا تقف — حفظك الله — بعد مضيّك في عقابي التماساً للعفو  
 عني ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة لي . ولكن قف وقفة من  
 يتهم الغضب على عقله والشيطان على دينه ، ويعلم أن للعقل خصوماً والكرام  
 أعداء ، وأن من النصف أن تنتصف لعقلك من خصمه وتنتصف لكرامك

(١) كفاً ، ولعلها : استغرق — (١٤) غضباناً — (١٥) جعلني الله فداك ب —  
 [ في عقابي ] ب — (١٦) في إفراطك ب — (١٧) وتعلم ب — (١٨) النصف ب —  
 و [ تنتصف ] لكرامك ب

- من عدوّه ، وتُسمِكُ إمساكاً مَنْ لَا يُبْرِئِيْ نَفْسَهُ مِنَ الْهُوَى ' وَلَا يُبْرِئِيْ الْهُوَى  
 مِنَ الْخَطَا ، وَلَا تُنْكَرُ لِنَفْسِكَ أَنْ تَمُوتَ ' وَلَعَلَّكَ أَنْ يَهْفُو ، فَقَدْ زَلَّ آدَمُ  
 عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَذَا ' وَعَصَى رَبَّهُ وَغَوَى وَغَرَّهُ عَدُوُّهُ وَخَدَعَهُ خَصْمُهُ وَعِيبَ ٣  
 بِأَخْتِلَالِ عِزِّهِ وَسَكُونِ قَلْبِهِ إِلَى خِلَافِ قُتْقَتِهِ ، هَذَا وَقَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ  
 بِيَدِهِ وَأَسْكَنَهُ فِي دَارِ أَمْنِهِ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ وَرَفَعَ فَوْقَ الْعَالَمِينَ  
 دَرَجَتَهُ وَعَلَّمَهُ جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ بِجَمِيعِ الْمَعَانِي (١) . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَهُ الْأَسْمَ وَيَدْعَ ٦  
 الْمَعْنَى ، وَيَعْلَمَهُ الدَّلَالَةُ وَلَا يَضَعُ لَهُ الْمَدْلُولَ عَلَيْهِ . وَالْأَسْمُ بِلا مَعْنَى  
 لَعَوٌ كَالظَّارِفِ الْخَالِي ، وَالْأَسْمُ فِي مَعْنَى الْأُبْدَانِ وَالْمَعْنَى فِي مَعْنَى الْأَرْوَاحِ ،  
 اللفظُ للمَعْنَى بَدَنٌ وَالْمَعْنَى لِلْفَرْقِ رُوحٌ . وَلَوْ أَعْطَاهُ الْأَسْمَاءُ بِلا مَعَانٍ لَكَانَ ٩  
 كَمَنْ وَهَبَ شَيْئاً جَامِداً لَا حَرَكَةَ لَهُ وَشَيْئاً لَا حِسَّ فِيهِ وَشَيْئاً لَا مَنْفَعَةَ  
 عِنْدَهُ . وَلَا يَكُونُ اللفظُ أَسْماً إِلَّا وَهُوَ مُضْمَنٌ بِمَعْنَى ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى وَلَا أَسْمَ  
 لَهُ وَلَا يَكُونُ أَسْمٌ إِلَّا وَلَهُ مَعْنَى . فِي قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ ١٢  
 كُلَّهَا ، إِخْبَارٌ أَنَّهُ قَدْ عَلَّمَهُ الْمَعْنَى كُلَّهَا . وَاسْمُنَا نَعْنَى مَعْنَى تَرَكَيبِ الْأَلْوَانِ  
 وَالطُّعُومِ وَالْأَرَايِيحِ وَتَضَاعُيفِ الْأَعْدَادِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي وَلَا تَنْفَاهِي . وَلَيْسَ لَهَا  
 فَضْلٌ عَنْ مَقْدَارِ الْمَصْلُحَةِ وَنَهَايَةِ الْوَهْمِ أَسْمٌ ، إِلَّا أَنْ تُدْخِلَهُ فِي بَابِ الْعِلْمِ فَتَقُولَ ١٥  
 شَيْءٌ . وَمَعْنَى الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَ النَّاسِ إِنَّمَا وُضِعَتْ عِلَامَاتٍ لِّخَصَائِصِ  
 الْحَالَاتِ لَا لِفَتَاوُجِ التَّرَكِيبَاتِ . وَكَذَلِكَ خَاصُّ الْخَاصِّ لَا أَسْمَ لَهُ ، إِلَّا أَنْ  
 نَجْعَلَ الْإِشَارَةَ الْمَوْصُولَةَ بِاللفظِ أَسْماً . وَإِنَّمَا تَقَعُ الْأَسْمَاءُ عَلَى الْعُلُومِ الْقَصُورَةِ ، ١٨

(١) وَلَا [يُبْرِئِي] ب — (٢) وَ <لَا> لَعَلَّكَ ب — (٣) [عَلَيْهِ السَّلَام] ب —  
 وَ <قَدْ> عَصَى ب — (٤) قُتْقَتُهُ ب : نَعْتُهُ د — (٨) لَعْلَهُ : وَالْأَسْمَاءُ — (١٨) اللفظ د

ولعمري إنها لتُحيطُ بها وتشتمل عليها . فأمّا العلوم المبسّطة فإنما تبلغ  
الأسماء بمبالغ الحاجات ثم تنتهى . فإذا زعمت أن الله تبارك وتعالى علّم آدمَ  
٣ . الأسماء كلها بمعانيها فإنما يعنى نهاية المصلحة لا غير ذلك

(\*) هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوى وأنت أرضى ،  
وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحقّ بالقوة والفرع أولى بالضعف .  
٦ فلست أسألك أن تمسك إلّا ريثما تسكنُ إليك نفسك ويرتدّ إليك ذهْنُك ،  
وحتى تُوازنَ بين شفاء الغيظ والانتفاع بشواب العفو(\*) ، وترى الحِلْمَ وما  
يجلب من السلامة وطيبِ الأحداث ، وترى تصرُّمَ الغرض وما يُفغِي لأهله  
٩ من فضل القوة . على أن العقل إذا تخلص من سُكر الغضب أصابه ما يصيب  
الخمور إذا خرج من سُكر شرابه والمنهزم إذا عاد إلى أهله والمبرسم إذا  
أفاق من برسامه . وما أشك أن العقل حين يُطلق من إسهاره كالقيد حين  
١٢ يُفكّ من قيوده ، فإنه يمشى كالنزيف ويحجل كالغراب . فإذا وجب عليك  
أن تحذّر على عقلك مخامرة داء الغضب بعد تخلصه وأن تعتمد على العلاج بعد  
مباينته له وتخلصه من يده ، فما ظنك به وهو أسير في ملكه وصرير تحت  
١٥ كلكله ، وقد غطّه في بحره وغمره بفضل قوته

وقد زعموا أن الحسن حضر أميراً قد أفرط في حقوبة بعض المذنبين ،  
فكلمه فلم يحفل بكلامه وخوفه فلم يتعظ بزجره ، فقال إنك إنما تضربُ  
١٨ نفسك ، فإن شئت الآن فأقول وإن شئت فأكثر . ومعاذ الله أن أقول لك  
كما قال الحسن لذلك الظالم المعتدى والمصمّم القاسى . ولكنى أقول : أعلم

(١) فانها ٢ — (٨) لعله : الغيظ ، أو الغضب ؟

أنك تضرب من قد جعلك من قتله في حل . وإن كان القتلُ يحلُّ بإحلالِ  
المقتول ويسقط عنه عقابه بهيمة المظلوم ، ولو أمكن في الدين تَوَاهُبُ قصاص  
الآخرة في الدنيا ، وإن كان ذلك مما تجوِّدُ به النفس يوم الحاجة إلى  
الثواب وإلى دفع العقاب ، وكان الوفاء مضموناً ، لكنتُ أولَ من  
أسمحتُ بذلك نفسه وانشرح به صدره

(٥) جعلتُ فذاك ، أعلمُ أني قد أحصيتُ جميعَ أسبابِ التعادى وحصلتُ  
جميعَ عللِ التضاعن ، إلاَّ علةَ عداوةِ الشيطان للإنسان ، فإنِّي لا أعرفُ  
"إلاَّ مجازها في الجملة ولا أحقَّ خاصتها على التحصيل ، وعلى < كل >  
حالٍ فقد عرفتُها من طريق الجملة وإن جهلتُها من طريق التفصيل .  
فإنما هذا التجعُّي فلم أعرفه في خاصٍّ ولا عامٍّ

فمن أسبابِ العداوات تنافسُ الجيران والقربات وتحاسُدُ الأشكال في  
الصناعات ، ومن أمثني أسبابهم إلى الشرِّ وأمرعها إلى المروءة والعقل وأندحها  
في العِرض وأحطها على الدين ، التشاحُّ على المواريث والتنازُع في تخوم  
الأرضين ، فإن اتفق أن يكون بين المتشاكِلين في القرابة كان السبب  
أقوى والداء أدوى ، وعلى حساب ذلك إنُجمعت هذه الخصومة مع الجوار  
والقرابة واستواء الخطِّ في الصناعة . ولذلك كتبُ عُمرُ — رضى الله عنه —  
إلى قضاته أن رُدُّوا القرباتِ عن حُرِّ القضاء ، فإنَّ ذلك يورث التضاعن  
ولم أعجب من دوام ظلمك وثباتك على غضبك وغلظ قلبك ، ودُّرنا

(٥) ذلك ٥ — (٨) | إلا [ ب — < كل > : أضفناه ، وقد سقط من ٥

و ب — (١٠) في عام ولا خاص ب — (١٧) كذا ٥

بالمسكّر متجاوزة ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة ، ونحن ننظر في علم  
واحد ونرجع في النحلة إلى مذهب واحد ، (\*) ولكن اشتدّ تعجّبي منك اليوم  
وأنا بفرغانة وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام ، وأنت صاحب نتاج ، ٣  
وصناعتك جودة الخطّ وصناعتي جودة الحو ، وأنت كاتب وأنا أمّى ، وأنت  
خارجي وأنا عشري ، وأنت زرعى وأنا نخلي . فلو كنتُ إذ كنت من بكر  
كنت من تميم كان لك إلى العداوة سبب وإلى المنافسة سُلم ٦  
(†) أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ، وأنت  
أصلح وأنا أنزع ، وأنت صاحب برازين وأنا صاحب حمير ، وأنت  
ركن وأنا عجول ، وأنت تدبّر لنفسك وتقيم أودّ غيرك وتتسع لجميع ٩  
الرعيّة وتبلغ بتديريك أقصى الأمتة ، وأنا أعجز عن تديري نفسي وعن تديري  
أمّى وعبدى ، وأنت مُنعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سوقة ، وأنت  
مصطنع وأنا صنيعة وأنت تفعل وأنا أصِف ، وأنت مُقدم وأنا تابع ، ١٢  
وأنت إذا نازعت الرجال وناهضت الأكفاء ، لم تقلْ بعد فراغك وانقطاع  
كلامك لو كنت قلت كذا كان أجود ولو تركت قول كذا لكان  
أحسن ، أمضيت الأمور على حقائقها وسلّمت إليها أقساطها على مقادير ١٥  
حقوقها ، فلم تندم بعد قول ولم تأسف بعد سكوت ، وأنا إن حكمتُ ندمتُ

(٤) الحو : النجوم — (٥-٦) إذ كنت من تميم كنت من بكر — (٦) سبباً  
د — سلفاً — (٨) أفرع — (١٠) ويبلغ تديريك — عن تديري م ، عن  
نفسى — (١١) [وأنت ملك وأنا سوقة] — (١٢) مُقدم — (١٤) لكان م —  
كان ب — (١٥) وأمضيت — أقاسطها — (١٦) حكمت م : تكلمت د ، جلت ب

(\*) (٥-٢) (٢-٢) من ٨٩ ، ٢) ولكن اشتد ... لا أحد : رواية ب ١٨

(†) (٧-١) (٧-١) من ٨٩ ، ١) أنت أبقاك ... بدعت : رواية م ٦

وإن جازيتُ أبدعتُ<sup>(١)</sup> ورأي كلُّه دبريٌّ . وأنت تُعسدُ في الشطرنج  
زرب <sup>د</sup> وأنا في الشطرنج لا أحد<sup>(٢)</sup>

وما أعرف ههنا اجتماعاً على مشاكلة ، إلا في الإيثار يُخبز الخُشكار على  
الحواري والباقي على الجوزينج ، وأنا جميعاً ندعى الهندسة . فقد بلغ الآن  
من جرمي في مساواتك في خبز الخشكار وإيثاري الباقي والمعرفة بتقدير  
المُدُن وإجراء القتي ، أن أنفي من جميع الأرض وأن تجعل في دمي  
الجمال . فإني قد هجرتُ الخبز البتة إلى مواصلة التمر ونزلتُ الوبر بدلاً  
من المَدَر

دَعْنَا الآنَ فَإِنَّكَ فارغ . إن الله يعلم وكفى به عليماً وكفى به شهيداً وكفى  
به حفيظاً ووكيلاً وكفى بجُرْأَةٍ مَنْ يَعْلَمُهُ مَا لَا يَعْلَمُ جُرْأَةً وَتَعَرُّضاً وكفى  
بِحَالِهِ عِنْدَ اللَّهِ بُعْداً وَمَقْتاً . لقد أردتُ أن أفديك بنفسي في بعض كتبي ،  
وكنيت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الهلكى ، فرأيتُ أن من الخيانة  
لك ومن اللؤم في معاملتك ، أن أفديك بنفسي مَيِّتَةً وأن أريك أنني قد  
جُدْتُ لك بأنفس عِلْقِي والعِلْقُ معدومٌ . ابس أن من قد فداك فقد جُمِلَ  
فِداك ، ولكنها نهاية من نهايات التعظيم ودليل من دلائل الاجتهاد ، ومن  
أعلن الاجتهاد لك واستسرَّ خلاف ذلك ، فقد نائق وخان وغش وألام ،  
وأخلاق بمن أخلَّ بهذه ألا يرعى حقاً ولا يرجع إلى صحة ولا إلى حقيقة  
ثم أنت لا يشفيك متى السَّمُ المُجهز ولا السَّمُ السَّارِ فَإِنَّهُ أَبْعَدُ غَايَةً

(١) وإن جازيت بدعت م : وإن جازيت هربت ب ، سقط من د — [تعد] ب —

(٢) زرب د ، زرب ب — لا جد ب — (٤) عن د — (٧) ونزلت ، صحفنا :

وتركت د — (١٢) بنفسه د

في التطويل ، وأبلغ في التعذيب ، لا ولا لعاب الأفاعي وداهية الدواهي ،  
 فإنه يُعجز الرقي ويفوت ذرع الأطباء ، لا ولا نار الدنيا ، بل لا يشفيك  
 ٣ من نار الآخرة إلا الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلا أن أرمي في سوائه وفي  
 أضطمة ناره وفي معظم حريقه وفي موضع الصميم من لهيبه ، بل لا تكفي  
 بذلك دون الدرك الأسفل ، بل لا يرضيك شيء سوى الهاوية ، بل لا ترضى  
 ٦ إلا بعداب آكل فرعون أشد العذاب ، بل لا يرضيك إلا عذاب إبليس الذي  
 زين الخمر للعباد وبثه في البلاد ، والذي خطأ الرب وعابده وردّ قوله  
 وغير عليه تديره ، ولم يزد إلا شكاً وجاجةً وتمادياً وإصراراً ، ثم لم يرض  
 ٩ من الخذل في مخالفة أمره وخلع العذار في شدة الخلاف عليه ، إلا بأن يحلف  
 على شدة اجتهاده في ذلك بغيرته ، فجعل العزة المانعة من إسقاطه سبيلاً إلى  
 إسقاطه ، والقسم الحاجر دون إغضابه وسيلة إلى إغضابه ، حيث قال :  
 ١٢ فَبِعِزَّتِكَ لَأُفْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ

فصليكَ — عافاك الله — يا إبليس إن كنت لله تغضب ، أو عليك بالأكفاء  
 إن كنت لنفسك تشقى . لا ولكنك استغفرتني واستضعفتني ، وجعلتني  
 ١٥ فزوج الرقا ، (\*) وتريد أن تتعلم في معاقبة الأعداء (\*). فإن كنت إلى هذا  
 تذهب فجعفر بن معروف أضعف مني وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً مني  
 سبحانه الله يسلم عليك خيذر الأفشين ويهلك عليك عمرو الجاحظ ،

(أ) يده د — وتباينا د — (١٢) ومزتك د — (١٥) كذا في د ولعله  
 الرقام — (١٧) الأفشيني د

(١٢) سورة ص : ٨٢

(\*)-\*) (١٥) رواية ب ١٩ : أنت جعلني الله فداك تريد أن تتعلم في عقوبة الأعداء



- ويسود بك أبعد البُعداء ويشقى بك أقرب القرباء ، وتتغافلُ عن مُثل الجبال التماساً للتسليم وحُباً للسلامة ، وتتغافلُ إلى المحفّرات طلباً للتعريض وحُباً للشر . ومتى قدرت على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ،  
 ٢ ومتى لم تتغافل عنه تسكّراً أو تدعه إحقاراً ، ومتى اكترت لكبير أو ضاق صدرك عن شيء عظيم ، فهأنذا بين يديك فكُنْني بخلاً وخذل ،  
 ٦ فوالله إنك لتأكله غشاً غير مَرِيٍّ وخبيثاً غير شهيٍّ
- لا (٥٠) والله لكأنك وقعت على مطمورة وظفرت برأس خافان (٥٠) .  
 كنتُ أظنُّ أن الرِّساقة والحلم لا يجتمعان وأنَّ ظَرْفَ الإنسان وإصابة  
 ٩ الرأى لا يُقترنان ، وأنَّ النَّزق والخِفة مقرونان بخِفة البدن وأنَّ الرِّكابة والأناة مجموعان لصاحب السِّمن . حتى رأيتُك فأعتقدتُ بك خلاف ذلك  
 الرأى واستبدلتُ فيك ضدَّ ذلك الفنِّ ، فتركنتي حتى إذا نازعتُ الرجال  
 ١٢ وتعرّضتُ للشجى وشغلتُ نفسي بثلب الخصام وانقطعتُ إلى أصحاب القدود وجعلتُ عداوتى فى تقديم القِصاف ، وطال لسانى بك وأظهرت  
 الاستبصار فى فضلك ، (٢) وجعلتُ مزاج أخلاطك هو الحُجّة واعتدالك هو التَّهاتية وطبيعتك هى المسكنة ، وزعمتُ أن منظرَك يُغنى عن تحريك وأنَّ  
 ١٥ أولَّك يُخلى عن آخرك ، شددتُ على شدَّة المهر الأرِنَ وتسرَّعتُ إلى

(١) مثلك الجبال ② - (٢) وتغافل ③ - (٤) طرف ⑤ - وإطالة الرأى ⑥ -

(٩) لا يعترفان ⑦ - (١٢) لمل الصواب : القصار ؟ (١٤) جعلت <فذاك> مزاج أخلاطك ب - واعتدال <طبائلك> هو ب - (١٦) يحكى ب - <و> شددت ب

تسرّع الفرّ النّزق وألحّتْ <على> إلحاحَ الحقّ (١). كأنّك لم تحفل  
 بما يسمع لك من أسم التّسرّع وبما تُصافُ إليه من سُخفِ المتبرّع ، بعد أن  
 ٣ تُكذِّب قولي وتُفسد خبري . (\*) وقد تقدّمت التجربة في أنّ الحديد  
 لا يكون حقّوداً وأنّ المصطنع لا يكون للصّنيعة حاسداً ، فقدّمت على رأسى  
 إلى القياس المتحن فأفسدته وإلى الطّبايع المعتدلة فنقضتها وإلى القضايا  
 ٦ الصّحيحة فرددتها (\*)

وقد قالوا بأجمعهم : حالان لا يقبلان الحسد ولا يخلوان من الرّشد ،  
 حال الصّنيعة لمُصطنعهِ وحال المولى لمُعْتِقِهِ . فكيف إذا كان الصّنيعة  
 ٩ صديقاً وكان للخاصّة محتملاً . وإنما صارت — أبداً الله — أجزاء النفس  
 وأعضاء الجسد — مع كثرة عددها واختلاف أخلاطها وتباعد أماكنها —  
 نفساً واحدة وجسداً واحداً ، لأستواء الخواطر ولإيقافها على الإرادة .  
 ١٢ فأنّت وصديقك الموافق وخليّلك ذو الشّكل المطابق ، مستويان في المحابّ  
 متفقان في الهوى منشاكلان في الشهوة ، وتعاونكما كتعاون جوارح أحدكما  
 وتسالكما كتسالم المتفق من طبائعكما ، فإذا بان منك صديقك فقد بان منك  
 ١٥ شطرك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتلّ نصفك . بل النفوس المضمّنة كالمعاني  
 المضمّنة ، فذهاب بعضها هو ذهاب جميعها ، فوئى هو موت صديقي وحياتي هي  
 حياة صديقي ، فلا تُبعدنه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ، فقد يقرب البغيض  
 ١٨ وينأى الحبيب . ولعل بعض طبائعك الخاطِط لروحك أن يكون أعدى من كل

(١) <على> ب — (٢) لعله : المتفرغ ؟ — (٣) وقد تقدّمت <إلى> التجربة  
 لأن الحديد ب — (٤) [وإن المصطنع ... حسوذاً] ب — (٥) [القياس] ب

عدوً وأقطع من كل سيفٍ وأخوف عليك من الأسد الضارى ومن  
السُّمِّ السارى

- ثم أعلم أن الوثوق بمودته قليل . وقد صار اليوم المعتمد عليه في صحة  
العقيدة وفي كرم الغيب والعشرة عفاء مغرب . ولا أعلم الكبريت الأحمر  
إلا أوجد منه ، وإني لأظن القناعة أكثر منه ، وما أكثر من جعل انقطاع  
سببه وضعف طبعه لانقطاع سببه قناعة . وقيل ليحيى بن خالد : أى شئ .  
أقل ؟ قال : قناعة ذى الهمة البعيدة بالعيش الدون ، وصديق قليل الآفات  
كثير الإمتاع شكور النفس يصيب مواضع المرح . لا والله لن تعرف على  
ظهرها موضعاً للسر ولا مكاناً للشكوى ولا روحاً تأنس بها ولا نفساً  
تسكن إليها . ولو أردت أن تعرفني من جميع العالمين رجلاً لما قدرت على أحد  
يحتمل النفي ، ويحتمل الفقر قليل ويحتمل النفي عديم

- إن الخير — أبقاك الله — في أيام كثرته كان قليلاً فما ظنك به في أيام  
قلته ، وإن الشر في أيام قلته كان كثيراً فما ظنك به في أيام كثرته . وأنت  
غريب في المصطنعين وأنا غريب في الصنائع ، والغريب للغريب نسب ،  
ونسب المشاكلة وقربة الطبيعة الموافقة أقرب من نسب الرحم ، لأن الأرحام  
مولعة بالتحاسد حجة بالتقاطع ، وإن التحاب على طمع المشاكلة والتلاقى  
على وفاق من الطبيعة ، أبعد من التفاسد وأبعد من التعادى ، وسبب التعادى  
عرض في طبائع الغرباء وجوه في طبائع الأقرباء

- وأعلم أنك لا تزال في وحشة إلى وحشة وفي غربة إلى غربة ، وفي  
تفكر العيش وتستغبط الحال ، حتى تجد من تشكو إليه بشك وتفضي إليه

بذات نفسك . ومتى رأيتَ عجباً لم تُضحكك رؤيتك له بقدر ما يُضحك إخبارك  
 إياه . فمن أغلب عليك من كانت هذه حاله منك وموقعه من نفسك . ولو أن  
 شيتي التي بها استعطفْتُك وكبرة سقى التي بها استرحمتُك ، اللتان لم يحدثا  
 عليّ إلا وأنا في ذراك ولم يحلّ بي إلا وأنا في ظلك ، لكان في شفاعة الكبرة  
 واسترحام الضعف والوهنة ما يردعك عن أشدّ الردع ويؤثر في طباعك أبين  
 الأثر ، فكيف وقد أكرمتني جديداً ثم تريد أن تهينني خلقاً ، وقويت  
 عظمي أغلظ ما كان ثم تريد أن توهنه أرق ما كان . وهل هربتُ إلا في  
 طاعتك وهل أخلقني إلا مُعاناة خدمتك

قال عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه : رأى الشيخ الضعيف أحب إلينا  
 من جلد الشاب القوى . وأنا أقول كما قال أخو ثقيف : مودة الأخ التالذ وإن  
 أخلق خير من مودة الطارف وإن ظهرت بشاشته وراعتك جدته . وقال  
 عبد الملك بن مروان : رأى الشيخ أحب إلينا من مشهد الغلام . وقال بعضهم :  
 ليس بغائب من شهد رأيه وليس بغائب من بقى أثره ، وما كمل العقل ولا  
 وفر التجربة شيء كمنقصان البدن وكأخذ الأيام من قوى الأعضاء . وقال  
 آخر : ما قبيح الرجال شيء كالوِكال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب  
 الاستطراف . وخير الناس من أتبع الغضب مواقع الذنوب ، وأتبع العقاب  
 مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى

(\*) ولقد مدحتك جلد شهابي كمالاً وغرب نشاطي مقتبلاً ، وكان  
 لك مهناء وثمرة قواه ، واحتملت دونك غرامه وعدمه وكان لك غنمه

- وعلى غُرمه ، وأعطيتُك عند إِدبارِ بَدني قوَّةَ رأْيي . وعند تَكمُّلِ معرفتي  
نتيجةَ تَجريبِي ، واحتملتُ دونك وَهْنَ الكِبَرِ وأَسقامَ الهَرَمِ . وخيرُ شركائِك  
مَنْ أعطاك ما صَفَا وأَخَذَ لِنَفْسِهِ ما كَدَّرَ ، وأَفْضَلُ خُطَايَاكَ مَنْ كَفَاكَ ٢  
مُؤُونَتَهُ وأَحْضَرَكَ مَعُونَتَهُ ، وَكَانَ كَلالَهُ عَلَيهِ ونَشاطُهُ لَكَ . وَأَكْرَمَ  
دُخْلَانِكَ وَأَشْكَرَ مُؤْمَلِيكَ مَنْ لَا يَظُنُّ أَنَّكَ تُسَمَّى جَزِيلَ ما تَحْتَمِلُ فِي بَذْلِكَ  
"وموأساتِك مُؤُونَةً" وَلَا تَتَّابِعُ إِحْسانَكَ إِلَيْهِ نِعْمَةً ، بَلْ يَرى أَنَّ نِعْمَةَ الشَّاكِرِ ٦  
فَوْقَ نِعْمَةِ الوَاهِبِ . ونِعْمَةُ الوادِّ المُخْلِصِ فَوْقَ "نِعْمَةِ الجِوَادِ الْمُغْنَى" (٥) ، وَأَنَّهُ  
لَا يَبْلُغُ فِي إعْطاءِ الجُهودِ مِنْ نَفْسِهِ فِي خَلْعِ جَمِيعِ مالِهِ إِلَى مُؤْمِلِيهِ وَالتَّحَرُّمِ مِنْ  
بِهِ ، حُسْنَ رِئْيةِ الشَّاكِرِ الوامِقِ وَحَقَّ تَمَتُّي الوادِّ العارفِ . وَلَوْ اقْتَضَيْتَ ٩  
جَمِيعَ حَقُوقِكَ عَلَيَّ وَأَنْكَرْتَ جَمِيعَ حَقُوقِي عَلَيْكَ ، أَوْ جَعَلْتَ حَقِّي عَلَيْكَ  
حَقًّا لَكَ ، ثُمَّ زَعَمْتَ أَنَّ حَقَّكَ لَا يُؤَدِّي إِلَى شُكْرِهِ وَأَنَّ حَقِّي لَا يُلْزِمُ  
حُكْمَهُ وَأَنَّ إِحْسانِي إِسَاءَةٌ وَأَنَّ الصَّغِيرَ مِنْ ذُنُوبِي كَبِيرٌ وَأَنَّ اللَّمَمَ مَنَى ١٢  
إِصرارٌ وَأَنَّ خُطَايَ عَمْدٌ وَأَنَّ عَمْدِي كُلَّهُ كُفْرٌ وَأَنَّ كُفْرِي يُوجِبُ  
الطَّمَعِ وَيَمْنَعُ مِنَ التَّزَوُّعِ ، لِمَا كَانَ عِنْدَكَ ، وَمَا اتَّسَعَ قَوْلِي لِأَكْثَرِ مِنْ  
هَذَا الْعِقَابِ وَلَا أَشَدَّ مِنْ هَذَا الْغَضَبِ . وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَقْدَارُ مِنْ ١٥  
النِّقَمِ إِلَّا لِبارئِ النَّسَمِ ، فِي دارِ البَقَاءِ لَا فِي دارِ الفَناءِ ، "والَّذِي يَجُوزُ بَيْنَ  
الْعِبَادِ إِنَّمَا هُوَ تَعْزِيرٌ أَوْ حَدٌّ أَوْ قَوْدٌ أَوْ قِصاصٌ أَوْ حَسٌّ أَوْ تَغْريبٌ أَوْ  
إِغْراقٌ أَوْ إِسْقاطٌ عَدالَةٍ أَوْ إلْزامٌ بِاسْمِ العَدَاوَةِ أَوْ عِقابٌ بِجَمْعِ الأَلَمِ وَالتَّقْوِيمِ ١٨  
وَالْتَنْكِيلِ ، فَيَكُونُ مَضْضُ الأَلَمِ أَجْرًا لَهُ وَمُعَدَّلًا أَسْبابُهُ . وَرُبَّمَا قَصَرَ الإِيقاعُ

(٥) موالِك م — (٦) وموأساتِك م — (٧) [نِعْمَةٌ] م — (١٤) يَظْهَرُ أَنَّهُ سَقَطَ

بِمَدِّ «عِنْدَكَ» عِدَّةُ كَلِمَاتٍ — (١٦) الَّذِي د — (١٨) لَعَلَّهُ: إِغْرامُ

على السُّخْطِ وجاوز حدَّ الغضب ، وربما كان مقصوراً على مقدارهما ومحبوساً  
 على نهاية حالهما . وليس كل عقابٍ نتيجة سُخْطٍ ، وقد لا يُسمَّى ذلك الموضع  
 والمُعاقِبَ واجداً كما يسمَّى ساخطاً ، ولا يسمَّى عاتباً كما يسمَّى غضباناً ،  
 فيخرج كما ترى من أن يسمَّى سُخْطاً أو موجدَةً وغضباً ، كما خرج عقاب آدم  
 عليه السلام من هاتين الصفتين ومن جميع القسمين ، وعلى أنه كان إخراجاً  
 من دار الخُلْدِ والكرامة إلى دار الابتلاء والحنة . مع ما في ذلك من إعراء  
 الجلد والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم والافتقار بيمين الخضم  
 والعجب أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل  
 عفوك ، ولا تضجر بطول تشاغلِكَ بظلم صديقك مع استغنائك عن ظلم  
 صديقك . فلو كنت إنما تفعل ذلك لأنك تلذَّ ضرب السِّياطِ ورَضَّ العِظامِ ،  
 فجَبَّ دَنَدَنَ أحمل والسوط في ظهر قاسمٍ أحسن وأبدانهما تحت السِّياطِ  
 أثبت وإن أرواحهما أبقى وهى بأرواح الكلاب أشبه وإلى طبائع الضِّبابِ  
 أقرب وأرحامهم بالخير آمن ومن يشير فيهم بذلك أكثر والأجر في ضربهم  
 أعظم . فاستدِمَّ اللذة بطريق اللذة وضع الأمور في مواضعها يُطلُّ سرورك بها  
 إن عتاق الخليل وأحرار الطير أدقَّ حسًّا وأشدَّ اكتراناً ، والكوادن  
 الغلاظ والحامس الثقال أكلٌ حسًّا وأقلُّ اكتراناً . وليس الصبر بالصمت  
 والسكرت ولا بقلة الصِّياح والضمور ، وقد يصيح تحت السوط من لا يُقرَّ  
 على صاحبه ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصِّياح  
 والهرب والفرس العتيق يحدو ولا يصيح ، والخافر كله كظوم ضاغنٌ والمخبط  
 كله ضجور صِّياح ، والضجر في الخلف عام والبختان أخجر ، فمن العلف عام

- وهو في الضأن أخفى . وكل مضروب هارب صَيَّاح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهرب من المسكروه محمود والمقام عليه مذموم ، كالذي يعترى عين السقم ، وتجده في الفرس الكريم ، من قلة الاكثرات وشدة .
- ٣ وصبر البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس . ولا يدل على الكرم . وفي المثل : ما رُوح فلان إلا رُوح كلب . ويقول العرب : الضب أطول شيء ذماء ، والكلب لئيم والضبي غير كريم . والبازي أكرم من الصقر وأشد . وأكثر قَمَمًا وأجل جمالًا وأعنى صيدًا وأنبل نُبلاً ، إن قبض عليه قتله . وإن لم يُنَحْ كندرتة عن قربه . أو هو نفسه . ثم يبلغ من دقة طمع البازي وعنفه أنه ينقطع برده للباز يار له إلى مسقطه من يده ، والصقر يتعلق بإساقيه من رجل حمل بذرع ٩ فيضطرب منكسًا إلى الصبح ثم يجده وكأنه لم يزل على كندرتة وعلى مسقطه الذي يؤتى له

- ١٢ فليس بدني من أبدان الاحتمال فأمتعتك يطول ثباته لك ، ولا أثبت لك ثبات العبر الكليل الحسن . ولا أجمل الصياح دليلًا على الإقرار ، فيكون ذلك أحد ما تتمتع به وتُدرك به حاجة نفسك . وقد دلتك على ناس يجمعون لك الخصال التي فيها دوام لذتك وتمايم شهوتك . فإن زعمت أن الذي يُثبت روح ذنن في بدنه وروح القاسم في جسمه ، سرورهما بما قد احتججتا من كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما في أبدانها ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرق بينهما وبين تلك الأموال التي

(٣) كذا في ولله : العبر السقيم — (٩) أو هو ، صححتنا : ار هو —

(١٠) كذا

تمسك أرواحهما بالحيل اللطيفة والتدبير النافذ ، وبأن تُمضى فيهما حُكم  
 الكتاب والسُّنة . فإنه سيجل عُقدة أرواحهما عقداً عقداً ، فيعظم أجرك  
 ٣ ويطيب ذكرك وتطيع الخليفة وتحتجب به الأمة ، فتكون قد أحسنت في  
 صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله . والسلام عليك ورحمة  
 الله وبركاته\*




---

(٥) تمت الرسالة بـ «ون الله ومنه وتوفيقه والله الموفق بالصواب برحمته . والحمد لله أولاً  
 وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه»



## ٤

### رسالة فصل ما بين العداوة والحسد

تأليف

٣

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاهلي (\*)

فِي تَرْغِيبِ النَّاسِ إِلَى الْحَسَنِاتِ

- ٦ أَصْعَبَ اللَّهُ مُدَّتِكَ السَّعَادَةَ وَالسَّلَامَةَ وَفَرَّغَهَا بِالْعَافِيَةِ وَالسُّرُورِ وَوَصَّلَهَا  
بِالنِّعْمَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ وَالْكَرَامَةِ الَّتِي لَا تَحُولُ  
هذا كتابٌ — أطال الله بقاءك — نبيلٌ بارِعٌ ، فُصِّلَ فِيهِ بَيْنَ الْحَسَدِ  
وَالْعَدَاوَةِ ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلَا إِلَى كِتَابِ فَضْلِ الْوَعْدِ الَّذِي تَقْدِّمُ هَذَا  
الْكِتَابَ ، وَلَا إِلَى كِتَابِ أَخْلَاقِ الْوُزَرَاءِ الَّذِي تَقْدِّمُ كِتَابَ فَضْلِ الْوَعْدِ .  
وَإِنَّمَا نَبَّكَتْ هَذِهِ الْكِتَابُ وَحَسُنَتْ وَبَرَعَتْ وَبَدَّتْ غَيْرَهَا ، لِمَشَاكِلِهَا  
شَرَفَ الْأَشْرَافِ ، بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ الْأَنِيقَةِ الْغَرِيبَةِ وَالْآثَارِ الْحَسَنَةِ  
اللطيفة والأحاديث الباعثة على الأخلاق الحمودة والمكارم الباقية للأثورة ،  
مع ما تَضَمَّنَتْهُ مِنْ سِيَرِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ وَوُزَرَائِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ وَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ

(١٤) ما تضمنته ، صحفنا : ما تضمنها

(\*) الجاهلي رحمه الله — أول الرسالة في : الحمد لله وبه التَّوَكُّلُ كما هو أحله  
وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به وعلى آل محمد كما سننه محمد صلى الله عليه وعلى آله  
وسلم كثيرًا

أحوالهم . فإنا أسألك بساطع كرمك وناصع فضلك ، لئلا امتننت على  
 بصرف عنايتك إلى قراءتها ، فإن لم يمكنك تبخرها والتقضى لجميعها ،  
 ٣ للأشغال التي تعروك ، فيحسبك أن تقف على حدودها وتتعرف معاني  
 أبوابها ، بتصفح أوائلها . فإن معك قلباً به من اليقظة والذكاء والتوقد  
 والحفظ ما يكفي معه نظراً الخاطف

٦ إنه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الزاهية إلا وفيه  
 علماء محققون ، قد قرأوا كتب من تقدمهم ودارسوا أهلها ومارسوا .. ..  
 لهم وعابوا الخالفين عليهم ، فحَضُّوا الحكمة وعَجَمُوا عيادها ، ووقفوا على  
 ٩ حدود العلوم ، فحَفِظُوا الأُمِّهَات والأصول وعَرَفُوا الشرائع والفروع ، فقرنوا  
 ما بين الأشياء والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووصلوا بين  
 المتجاور والمتوازي ، واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البين ، واستظهروا  
 ١٢ على الخفى المشكل بالمكشوف المعروف ، وعرفوا بالفهم الثاقب والعلم  
 الناصع ، وقضت لهم الحنة بالذكاء والفطنة . فوضعوا الكتب في ضروب  
 العلوم وفنون الآداب ، لأهل زمانهم والأخلاف من بعدهم ، يزدلفون  
 ١٥ بذلك إلى الممتن عليهم بفضل المعرفة التي ركبها الله فيهم وأبانهم من  
 غيرهم وفضلهم عليهم ، ويُبَاهَوْنَ به الأمم الخالفة لهم ، ويقَارُونَ فيما بينهم  
 ولهم حُسادٌ معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم والكتب  
 ١٨ منتحلة يدعون مثل دعاويهم ، قد وسموا أنفسهم بسمات الباطل وسموا

(١) أسألك — (٣) فيحسبك ، صححنا : وبفضلك — (٧) يباس كلتين في —

(١١١) المتجاوز والفتاوى — (١٥) لعل الأشبه : فأبانهم — (١٨) لعله : بسمات

< العلماء > بالباطل ؟ — وسموا —

- بأسماء العلم على الحجاز من غير حقيقة وليسوا لباس الزور متزخرفين متشبهين بما لا محصول له ، يحتذون أمثلة الحقّين في زيّهم وهدّيتهم ويقتفون آثارهم في أنفازهم وألحاظهم وحرّكاتهم وإشاراتهم ، لئیسبوا إليهم ويحلّوا محلّهم . فاستمالوا بهذه الحيلة قلوب ضُعفاء العامّة وجُهلاء الملوك ، واتّخذهم المُعادون للعلماء الحقّين عدّة يستظهرون بهم عند العامّة . وحمل الدّعيّة للعلم الزور الحسد على بهت العلماء الحقّين وعصيتهم والطعن عليهم ، وجرائمهم على ذلك " ما رأوا من صغور ضُعفة القلوب وأذلة الناس إليهم ومثيل جُهلاء الملوك معهم عليهم . وأملوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامّة ، وتستوى لهم الرياسة على طَعام الناس ورغائهم ، ويستخولوا رعايهم وقومهم . فمزوا وهددوا ، وتوردوا على أهل العلم بقباوتهم وكشفوا أغطية الجبل عن أنفسهم وهتكوا سِتْرًا كان مُسدّدًا عليهم بالصمت — فقد قيل الصمت زينُ العالم وسِرُّ الجاهل — طمعًا في الرياسة وحُبًّا لها . وقد قيل :

- حُبُّ الرياسة دائم لا دواء له      وَقَلَّ ما يمجّد الرّاضين بالقسَمِ  
ولم يخلُ زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ، ولا يخلو . وهاك من هلاك من الأمم فيما سَلَفَ بحُبِّ الرياسة ، وكذلك من يهلك ، إلى انقضاء الدهر ، فبحُبِّ الرياسة :

- هَلَاكُ الناس مُذْ كانوا إلى أن تأتي الساعة  
بحُبِّ الأَمْرِ والنَّهْيِ      وَحُبِّ السَّمْعِ والطَّاعَةِ  
فأشكَلْ على العامّة أَسْرُ العالم الحقيقيِّ      والدّعيِّ "المجادلِ" والمنتحلِ

(٤) واجمدهم د — (٧) ما ، صحبنا : من د — (٩) كذا في د ولعلها :  
رمايهم أو ما يشبهها ؟ — وتوددوا د — (١٩) صحبنا : المحادي د

للزور والباطل . ثم ترادف عليهم من هذه اللعل التي تعمى لها السبيلُ  
الواضح والطريقُ المنشأ على الجاهل المستضعف وذى الفنا المسترهف

٣ ولست آمنُ — جعلنى الله فداك — أن تكون هذه الكتب التى أُعفى

بتأليفها وأناثق فى ترصيفها ، يتولى عرضها عليك من قد ليس لباس الزور فى  
انتحال وضع مثلها ، ونسب نفسه إلى القوة على نظائرها والمعرفة بما يقاربها

٦ إن لم يكن أخاها فأبن عمها ، ويشبع بما لم يطعمه الله منها . ولعل بعض من

حوله أو بعض من يهزل به ويرتع فى عقله ويلهو بلبه ويضمه على  
طبطابة اللب وفى أرجوحة العبث يوهمه الحسد له على ما يدعى من ذلك ،

٩ ويتقدم إلى آخرين فى إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فملهم ضراوة بادعاء ما ليس

معه وهو منه عار ، فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قيل :

ومن يسكن البحرين يعظم طحاله ويُعبط بما فى البطن والبطن جائعُ

١٢ وقد قيل الذئب يغبط وهو جائع ، فيلتوى فى قراءتها ويقبض لسانه

عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها ويقصر فى تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطعن عليها بقول أو إشارة ، فيؤهم

١٥ فساد معانيها ويؤمى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يظهر المعادة لها

والحسد لمؤلفها والحمل عليها بقول يكون دليلا على ما يضر ، وهو أبلغُ

ما يكون من قلب المستمع وأنجحه فيه ، فيقع ذلك بخلدّه . وقد قيل : من

١٨ يسمع يحل . وليس يقابله أحد برد ولا يوازيه نزاع ، فيزداد نشاطا عند

ما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : كل مجر فى الخلاء يسبق وكل مناظر

(٢) الماشد — (٦) من ، صحنا : ما — (٨) طيطاب — فيوهمه —

(١٢) الذئب — (١٥) المعادة — (١٧) وأنجحه — (١٨) بود —

متفرد بالنظر مسرور . وإنما يعرف جرى الخيل عند المسابقة وبراعة النظر  
عند الحاصمة

- وقال لي بشر المريسى : عرض كتابي على المأمون في تحليل النبذ ،  
وبحضرتة محمد بن أبي العباس الطوسي . فأنبى محمد للطعن عليه والمعارضة  
للحجج التي فيه ، وأسهب في ذلك وخطب وأكثروا طنب ، ففلق المأمون  
واحتدم وهاج واضطرم ، لاستحقار الطوسي وخلاء المجلس له . وكانت  
يحب أن يرعه وازع يكفه بحجة تسكته ، فلما لم ير أحداً بحضرته يدب  
عن كتابي قال متمثلاً :

يا لك من قسرة بمقمر خلا لك الجو فبيضي وأصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى

- فما كان إلا ريث فراغه من التمثل بهذه الأبيات ، حتى استؤذن لي ،  
فدخلت عليه . فقال : يا أبا عبد الرحمن ما تقول في النبذ ؟ قلت : حل طلق  
يا أمير المؤمنين ، فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ، قلت : لعن الله قليله إذا لم يسكر  
كثيره . ثم قال : إن محمداً يخالفك . فأقبلت على ابن أبي العباس ، فقلت له :  
ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال : لا خلاف بيني وبينك ، كلاماً يؤهم به  
أهل المجلس ، حُجاً للتسليم مني والتخلص من مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل  
له . فاستغفمت ذلك منه ، وقلت له : فإلى لا أرى أثر قواه في عقلك ؟  
فضحك المأمون ، فلما رأيت ضحكه أطنبت في معاني تحليل النبذ ، وابن أبي  
العباس ساكت لا ينطق ، وكان قبل دخولي ناطقاً لا يسكت . فلما رأى

المؤمن سكوته عند حضوري ، مع كثرة كلامه في ثلب كتابي وعييه  
— كان — قبل دخولي ، قال متمثلاً :

٣ مَالَكْ لَا تَنْبَحُ يَا كَلْبَ الدَّوْمِ      قَدْ كُنْتَ نَباحاً فَمَالَكِ الْيَوْمِ  
ثم نظر إلى فقال : إِنَّ السَّكْتَ عَقُولُ قَوْمٍ وَراءَها عِنْدَهُمْ حُجَجٌ لَهَا ،  
فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْضَى عَلَى كِتَابٍ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ مُدَافِعٌ عَنْهُ وَخَصَمٌ يَبِينُ عَمَّا فِيهِ  
٦ فَإِنْ أَبْنَاءَ النَّعَمِ وَأَوْلَادُ الْأَسَدِ مُحْسُودُونَ . ثم قال : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحَنِ بِإِزَاءِ  
كُلِّ حَاسِدٍ رَاهِنٌ ، وَقَدْ قِيلَ فِي مَثَلٍ مِنَ الْأَمْثَالِ : " الْحَسَنُ مُحْسُودٌ ، وَفِي  
مَثَلٍ آخَرٍ : لَنْ تَعْدَمَ الْحَسَنَاءُ ذَاتِماً ، وَقَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :

٩ وَلَنْ تُصَادَفَ مَرْعَى مُبْمَرِعاً أَبَداً      إِلَّا وَجَدْتَ بِهِ آثَارَ مَا كَوَّلَ  
" يَقَالُ يَصَابُ فِي كُلِّ حَسَنٍ وَيُؤْكَلُ مِنْهُ فَيَعْيِيهِ ذَلِكَ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ  
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا أَحْدَثَ اللَّهُ لِعَبْدٍ نِعْمَةً إِلَّا وَجَدْتَ لَهُ عَلَيْهَا حَاسِداً ،  
١٢ وَلَوْ أَنَّ أَمْرَاءَ كَانَ أَقْوَمَ مِنَ الْقِدَحِ لَوَجَدْتَ لَهُ غَامِزاً . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الْحَاسِدُ لَا يَمْلِكُ عِنَانُ حَسَدِهِ ، لِأَنَّهُ مَغْلُوبٌ عَلَى نَفْسِهِ . وَقَالَ  
الْخَطَّابُ بْنُ نُفَيْرِ السَّمْعَدِيِّ : الْحَاسِدُ مَجْنُونٌ يَحْسُدُ الْحَسَنَ وَالْقَبِيحَ . وَقَالَ  
١٥ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ : الْحَسْدُ شِهَابٌ ، لَا يُبَالَى مِنْ أَصَابٍ وَعَلَى مَنْ وَقَعَ  
وَالْعَدَاوَةُ لَهَا عَقْلٌ تَسْوِسُ بِهِ نَفْسَهَا ، فَيَنْجُمُ قَرْنَهَا وَتُبْدِي صَفْحَتَهَا ، فِي  
أَوْقَاتِ الْهَرَبِ ، وَإِلَّا فَإِنَّهَا كَامِنَةٌ تَنْتَظِرُ أَرْمَنَةَ الْفُرْصِ ، وَالْحَسْدُ مَسْلُوبُ  
١٨ الْمَقُولِ بِإِزَاءِ الضَّمِيرِ فِي كُلِّ حِينٍ وَزَمَانٍ وَوَقْتٍ . وَمِنْ لُؤْمِ الْحَسْدِ أَنَّهُ مُوَكَّلٌ  
بِالْأَدْنَى فَالْأَدْنَى وَالْأَخْصُ فَالْأَخْصُ ، وَالْعَدَاوَةُ وَإِنْ كَانَتْ تَقِيحُ الْحَسَنَ فَيُؤَى

(٥) دافع د — (٦) كذا في د — (٧) كذا في د ولعل في العبارة سقطاً  
تأويله : بِإِزَاءِ كُلِّ <حَسَنٍ> حَاسِدٍ رَاهِنٌ — الْحَسَنُ ، صَحْبُنَا : الْحَسْدُ د —  
(١٠) كذا ، وفي الجملة تحريف ، ولعل يصاب صحتها : الْعَابِ

دون الحسد ، لأنَّ العدوَّ المبينَ قد يحول ولثيًا منافقًا ، كما يحول الوليُّ المنافق  
عدوًّا مبينًا ، والحاسدُ لا يزولُ عن طريقته إلَّا بزوال الحسود عليه عنده .  
والعداوةُ تحدثُ لعلَّةٍ ، فإذا زالت العلةُ زالت معها ، والحسدُ تركيب لعله يحسد  
عليه ، فهو لا يزول إلَّا بزواله

ومن هذا قال معاويةُ رحمه الله : يمكنني أن أرضى الناسَ كلهم إلَّا حاسدَ  
نِعْمَةٍ ، فإنه لا يرضيه منها إلَّا زوالها . وأعداء النعمة إذا شُورَكوها فيها ونالوا  
منها ، تَرَحَّزَحوها عن عداوتها وكانوا من أهلها الحاميين عنها والدافعين  
عن حماها

ومن هذا قال المفيرة بن شُعْبة : النعمةُ التي يُعاش فيها نعمة محروسة ،  
ليس عليها نازرٌ يقتالها ولا ذو حَسَدٍ يحتال في غيرها

وقال قُتَيْبَةُ بن مُسْلَمٍ : خيرُ الخير وأحصَنُهُ خيرُ عيش فيه . وكلُّ خير  
كان يوضح بدلًا ؛ كان من المتالف ممنوعًا ومن الغير آمناً

وحَسَادُ النعمة إنَّ أعطوا منها وتبجحوا فيها ، ازدادوا عليها غيظًا  
وبها إغراء . والعداوةُ تخلق وتَمَلُّ والحسدُ غَضُّ جديدٌ حرامٌ إذا عطيَ  
لا يبيد . فكلُّ حاسدٍ عدوٌّ وليس كل عدوٍّ بحاسد . وإِنَّمَا حَلَّ الْيَهُودَ عَلَى  
السَّكْفَرِ بِحَسَدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أنه  
نبيٌّ صادقٌ ورسولٌ محقٌّ يَقْرَؤُونَ بعثه في توراتهم ويتدارسونه في بيتِ  
مدراسهم — الحسدُ ، وَحَجَزَ بَيْنَ عِلْمَانِهِم وَالْإِيمَانِ بِهِ ، ثم نتج لهم الحسدُ عداوته

(٢-١) كذا ، ولعلها المبارز ، مبارزا — (٣) لعله ، صححنا : العلة — كذا ،

ولعله ، لعله ما يحسد عليه — (١٢) كذا ، ولعله : يرضخ بذلك — (١٣) ومحو —

(١٤) كذا ، ولعلها : حرم أو أعطى — (١٨) مدرستهم —

ومن الدليل على أنَّ الحسد آلمٌ وآذى وأوجعُ وأوضعُ من العداوة ، أنه مُغرىٌ بفعل الله عزَّ وجلَّ ، والعداوةُ عاريةٌ من ذلك لا تتصلُّ إذا اتصلت  
 ٣ إلا بأفعال العباد ، ولا يُمادى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع بأحدٍ عاذى أحدًا لأنه حسنُ الصورة جميلُ الحاسن فصيحُ اللسان حسنُ البيان ، وقد رأيتَ حاسدَ هذه الطبقة وسمعتَ به ، وهم كثيرٌ تعرفهم بالخبر والمشاهدة . فهذا دليلٌ على أنَّ الحسد لا يكونُ إلا عن فساد الطبع  
 ٦ وأعوِ حاج التركيب واضطراب السُّوس

والحسد أخو الكذب يجرَّيان في مضمار واحد ، فهما أليتان لا يفترقان  
 ٩ وخبيران لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ، ألا ترى أنَّ أولياء الله قد عادوا أعداء الله ، إذ لم يستحلُّوا أن يكذبوا عليهم . والحسد لا يبرأ من البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد وأساسه الذي به البناء يعقد . وأنشد :  
 ١٢

كضرائر الحسناء قلن لوجهها كذباً وزوراً إنه لدميم

والحسدُ نارٌ وقوده الروح لا يبوخ أبداً ، وبفى الوقود والحسدُ لا يبلى  
 ١٥ إلا ببلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يوقده الغضب ويطفئه الرضا ، فهو مؤلِّل الرجوع مرجوُّ الإنايه . والحسدُ جوهرٌ والعداوة اكتساب . وقال بعضهم الحسدُ أثى لأنه ذليل والعداوة ذكرٌ فحلَّ لأنها عزيزه والحسدُ  
 ١٨ وإن كان موكلاً بالأدنى فالأدنى ، فإنه لم يعز منه إلا بعد فالأبعد فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكنُ العراق وينتحلُّ العلم والأدب ، انتهى



- إليه خبر مشارِك له في الصناعة ، من أهل خراسان وَحده بلخ ، من اتَّساق  
الرياسة له في بلده وجهيل حاله ونُبل محله عند أهل مصره وطاعة العامة  
له وَترادف الناس عليه ، فطار قلبه فرقا وأخذته الأرباء وتنفس ٣  
الضعداء وانتفض انتفاض الملعس المطور ، فقال لي رجل من إخواني كان  
عن يميني حين رأى ما رأى منه : بحق قال من قال : لم يُر ظالم أشبه بمظلوم  
من حاسدٍ نعمة ، فإن نفسه متصلٌ وكرهه دائم وفكرته لا تنام ٦  
وهو في أهل العلم أكثر وعليهم أغلب وبهم أشدُّ لصوفا منه بغيرهم  
من الملوكة والسوقة . وكأنَّ من ناله التقصير في صناعة العلم عن غايته القصوى ،  
قد استشرَحَسَدَ كلَّ ما يردُّ عليه ، من طريف أدب أو أنيق كلام أو بدیع ١  
معنى ، بل قد وقع بخلفه لضعفه وقرَّ في رُوعه الخساسته ، أنه لا ينالُ أحدٌ  
منهم رياسة في صناعة ولا يتهيأ له سياسة أهلها ، إلا بالطن على نواصبيهم  
والعيب لجأنهم والتخيف لحقوهم ١٢  
قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر الذي يُعرف بصريع الغواني :  
خُيِّلَ إلى نوَكِي الشعراء أنهم لا يقضى لهم بجودة الشعر ، إلا بهجائي والطن  
في شعري ولسان بهجي به عرضي ، لا أنفكُ متهما من غير جرم ، إلا ما سبق ١٥  
إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التي أوهمتهم أنه لا يسجل لهم بجودة  
الشعر ، إلا إذا استعملوا في ما خُيِّلَ إليهم  
وأخبرني أشياخنا من أهل خراسان أن أبا الصلت الهروي كان عند الفضل ١٨  
ابن سهل ذي الرياستين بمرّو ، فقرأ عليه كتابا ألفه النضر بن شميل ، فطن  
أبوالصلت فيه . وكان الفضل عارفاً بالنضر الشميلي واثقا بعلمه مائلا إليه .

(١) كذا ، ولعله : وقصة (٣) فترادف (٨) غايته (١٠) لحاسته

(١٥) في الأصل : منها

فأقبل على أبي الصلت وقال له : إن يحيى بن خالد قال يوما : إن كنتي لتعرض  
 على من يغلط فممه عن معرفتها ويجسو ذهنه عنها ولا يبلغ أقصى علمه  
 ٣ أمانيتها — يعرض باسماعيل بن صبيح — فيطعن فيها ولا يدري ما يُقرأ عليه  
 منها ، إلا أن نار الحسد تلهبه ، فيهدى هذيان المريض ويهجر همران المعزى  
 ثم لا يرضى أن يقف عند أول الطعن ويُمسك عنه ، حتى يستقصي على نفسه  
 ٦ إظهار جهله عند أهل المعرفة باستيعابه الطعن على ما لم يبلغ دريأته ولم يحط به  
 علمه ، ثم يُنسيه جهله الطعن الذي تقدّم فيها ، ويحمّله نوكه على استعمال  
 معانيها وألفاظها ، في كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شهدوه في أوان طعنه  
 ٩ عليها وحين ثلّبه لها

فقد عرفت حقيقة ما قال يحيى بن خالد بالتجربة والابتلاء ، وإني ربّما  
 ألفتُ الكتابَ الحكمَ المتقنَ ، في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب  
 ١٢ والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على  
 الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركّب فيهم ، وهم يعرفون براعته  
 ونصاعته . وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتابُ مؤلفا للملك معه  
 ١٥ المقدرة على التقديم والتأخير والخط والرفع والترهيب ، فإنهم يهتاجون عند  
 ذلك احتياج الإبل المغتلة . فإن أمكنتهم حيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند  
 السيد الذي أُلّف له ، فهو الذي قصّده وأرادوه . فإن كان السيد المؤلف فيه  
 ١٨ الكتابَ نحريرا نقابا ونقريسا بليغا وحاذقا فطنا ، وأعجزتهم الحيلة ،  
 سرّقوا معاني ذلك الكتاب ، وألقوا من أعراضه وحواشيه كتابا ، وأهدوه

(٣) يعرض ، صححنا : فعرض ② — فيطعن ، صححنا : فطعن ② — (٤) المعزى ،  
 صححنا ، المعزى ② — (١٥) لعلها ، كما يشير السياق < والترغيب > والترهيب

إلى مَلِكٍ آخَرٍ ، ومَتُوا إِلَيْهِ بِهِ . وهم قد ذَمُّوهُ وَتَلَبَّوهُ ، لَمَّا رَأَوْهُ مَنْسُوبًا إِلَى  
وموسومًا بَنِي

- ٣ وربما أَلَفْتُ الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ دُونَهُ فِي مَعَانِيهِ وَالْفَاضِلُ ، فَأَتَرَجُمُهُ بِاسْمِ  
غَيْرِي ، وَأَحِيلُهُ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ عَصْرُهُ ، مِثْلَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ وَالْخَلِيلِ وَسَلَمِ  
صَاحِبِ بَيْتِ الْحِكْمَةِ وَيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَالْعَتَّابِيِّ وَمَنْ أَشْبَهَ هَؤُلَاءِ ، مِنْ  
مُؤَلِّفِي الْكِتَابِ . فَيَأْتِيَنِي أُولَئِكَ الْقَوْمُ بِأَعْيَانِهِمُ الطَّاعِنُونَ عَلَى الْكِتَابِ ٦  
الَّذِي كَانَ أَحْكَمَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، لِاسْتِنْسَاخِ هَذَا الْكِتَابِ وَقِرَائَتِهِ عَلَيَّ ،  
وَيَكْتُبُونَهُ بِخَطِّوْطِهِمْ وَيَصَيِّرُونَهُ إِمَامًا يُقْتَسَدُونَ بِهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ  
وَيَتَأَدَّبُونَ بِهِ ، وَيَسْتَعْمَلُونَ أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيَهُ فِي كُتُبِهِمْ وَخِطَابَاتِهِمْ ، وَرَوُودُهُ ٩  
عَنِّي لَغَيْرِهِمْ مِنْ طُلَّابِ ذَلِكَ الْجَنَسِ . فَيَثْبُتَ لَهُمْ بِهِ رِيَاسَةٌ ، يَأْتُمُّ بِهِمْ قَوْمٌ فِيهِ  
لَأَنَّهُ لَمْ يَتَرَجَمْ بِاسْمِي وَلَمْ يَنْسَبْ إِلَى تَأْلِيفِي

- ١٢ ولربما خَرَجَ الْكِتَابُ مِنْ تَحْتِ يَدِي مُحْصَفًا كَأَنَّهُ مَتْنُ حَجَرٍ أَمْلَسَ ،  
بِمَعَانِي لَطِيفَةٍ مُحْكَمَةٍ وَالْفَاضِلِ شَرِيفَةٍ فَصِيحَةٍ ، فَأَخَافُ عَلَيْهِ طَعْنَ الْحَاسِدِينَ إِنْ  
أَنَا نَسَبْتُهُ إِلَى نَفْسِي ، وَأَحْسُدُ عَلَيْهِ مَنْ أَهْتَمُّ بِنَسَبَتِهِ إِلَيْهِ ، لَجُودَةِ نِظَامِهِ  
وَحَسَنِ كَلَامِهِ ، فَأُظْهِرُهُ مُبْهِمًا غُفْلًا ، فِي أَعْرَاضِ أَصُولِ الْكِتَابِ الَّتِي لَا يَعْرِفُ ١٥  
وَصَاعَهَا فَيَنْهَالُونَ عَلَيْهِ أَنْهِيَالَ الرَّمْلِ وَيَسْتَبِقُونَ إِلَى قِرَائَتِهِ اسْتِبَاقَ الْخَيْلِ يَوْمَ  
الْحَبَلَةِ إِلَى غَايَتِهَا

- ١٨ وحسد الجاهل أهونُ شَوْكَةٍ وَأَذْلُ حِمْنًا ، مِنْ حَسَدِ الْعَارِفِ الْقَطِينِ .  
لَأَنَّ الْحَاسِدَ الْجَاهِلَ يَبْتَدِرُ إِلَى الطَّعْنِ عَلَى الْكِتَابِ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ يُقْرَأُ عَلَيْهِ ؛  
مِنْ قَبْلِ اسْتِثْمَامِ قِرَائَتِهِ وَرَقَّةً وَاحِدَةً . ثُمَّ لَا يَرْضَى بِأَيْسَرِ الطَّعْنِ وَأَخْفَى حَتَّى

يبلغ منه إلى أشده وأغلظه ؛ من قبل أن يقف على فصوله وحروفه . وليس  
يثنأ به مفسراً مفصلاً ؛ ولكنّه يُجملُ ذلك ويقول : هذا خطأ من أوله إلى  
آخره . وباطلٌ من ابتدائه إلى انقضائه . ويحسب أنه كلما ازداد إغرافاً وطعنًا  
وإطناباً في الحل على وضع الكتاب ؛ كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو  
لا يعلم أن السَّمْعَ إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخف به . وبكتّه بالجهل ،  
وَعلم أنه قد حكم من غير استبراء وقضى بغير روية ؛ فسقط عنه فبطال .  
والحاسد العارف الذي فيه تقية ومعه مسكة وبه طم أوحيا ، إذا أراد أن  
يغتال الكتاب ويحتال في استعماله ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده  
ومفاصله وردّد فيه بصره وراجع فكره وأظهر عند السيّد الذي هو بحضرته  
وجلسائه من التثبت والتأني ، حُبالةً يقتنص بها قلوبهم وسبباً يستدعى به  
ألبابهم وسُلماً يرتقى به إلى مُرادهم وبساطاً يفرش عليه مصارع الخُذَع ،  
فيؤمّم به القصد إلى الحق والاجتباء له . فربّما استدعى بهذه الخاتل والخُذَع  
قلب السيّد الحازم

فن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلّي الكتب ، إذا كان العارضُ  
لها على السيّد الذي منه رُجى أئمانها وعنده تنفق بضائع أهلها ، على هذه  
الصفة التي وصفتها ، من الحسد والحذق بأسبابه والمعرفة بالوجود التي تثلم  
الحسود وتمهّد وتضع منه ومن كتبه ، لا سيما إن كان مع استبطان الحسد  
وأستعمال الدهاء والذكاء ، جليساً لازماً وتابعا لا يفارق ومُحدثاً لا يريم ،  
وليست له رِعةٌ تحجزه عن الباطل ولا معه حذرٌ يبعثه على الفكر في العواقب .  
فإن هذا ربّما وافق فترة السيّد ، بطول تردّد الكلام وكثرة تكراره عليه ،

(٣) ويحسب ، صحنا : ويحسبه د — اغرافا ، صحنا : غرافا د — (٧) كذا ،  
ولعل حياد صوابها حياء

من تأكيد خطابه ونصرتة قوله وذبابه عنه واحتجاجه له فيؤثر في قلبه ويضجع رأيه . فليس للسيد الذي يحب أن يصير إليه الأمور على حقائقها وتصور له الأشياء على هيأتها ، حيلة في ذلك إلا حسم مادة هذا ٣ من أهل الحسد ، بالإعراض عنهم والاحتجاج دونهم

وربما بلغ من الحاسد جهد الحسد ، إذا لم يعمل بشهوته ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يُعْرِضَ على نفسه بالخطأ ويعترف أن الطعن الذي كان منه في ٦ في الكتاب عن سهو وغفلة ، وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسم الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له همه ، راجع وكان بدر منه عن وهم وخطأ ، لُتْظَنَ به الرعة ، ويقال إنه لم يرجع عن ٩ قوله واعترف بالخطأ ، إلا من عقل وازع ودين خالص . وإنما ذلك حيلة منه ودهاء قدمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطد لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب ، عن غير موافقة على مواضع . ويجعل ١٢ ما قد تقدم له من الرجوع عن قوله عند التبيين له خلاف ما قال ، أو ثبوت أسباب عدالته وأحكم عرى نصفته

وكان يقال : من لطيف ما يستدعى به الصدق إظهار الشك في الخبر الذي ١٥ يشك فيه . وكان يقال : من غامض الرياء أن ترى بأنك لا ترائي . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه ، أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تهمل فترة ، ثم تعود لطعن هو أعظم منه وأطم من الأول ، ليوثق بك فيه ، ١٨ ويقال : إن هذا لو كان عن حسد ما رجع عن الطعن الأول . وقد قيل : ذو الغيبة المشهور بها المنسوب إليها ، يقل ضرره ويضعف كيده ، لما ساغ

له في الناس وانتشر منه . فكان عندهم ظنينا متهماً ومطبوعاً عابها ،  
 يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذذ به : من غير قبول ولا اصطفاة  
 ٣ له . وإنما البلية في غيبة حذاق المغتابين الذين يسمعون فيضحككون ولا يتكلمون .  
 وأحذق منهم الذين يستمعون ويسكتون القائل ، ويدعون إليه بالصلاح للعقول  
 فيه . فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ، ودعوا للعقول فيه ، وأوكدوا قول  
 ٦ القائل ، لأنه لو حلّ عندهم محلّ البراءة مما قيل له ، لجبهه القائل ورُدع  
 عن قوله

ومُظهر التوقّي قليله عند العامة كثير ، والمتورّد المنتقم لا تكاد العامة  
 ٩ تقبل منه . وقد قال بعض العلماء : إنّ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود  
 كان من نبلاء المغتابين وحذاقهم حيث يقول :

مسا تراب الأرض منه خلقتما وفيها المعاد والمصير إلى الحشر  
 ١٢ ولا تعجبا أن تؤتيا وتُعظما فما حُشى الإنسان شراً من الكبر  
 فلو شئت أدلى فيكما غير واحد علانية أو قال ذلك في سرّ  
 فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما ضحكك له حتى يلج فيستشري  
 ١٥ ومن هذا سرق العتّابي المعنى حيث يقول :

إن كنت لا تحذُر شمتي لما تعرف من صفحي عن الجاهل  
 فاحش سكوتي سامعاً ضاحكاً فيك لمشروع من القائل  
 ١٨ مقالة السوء إلى أهلها أصرع من منحدر السائل  
 ومن دعا الناس إلى ذمّه ذموه بالحق وبالباطل

وقال القاسم بن معن : كان أبو حنيفة رحمه الله يبلغ " بالتبسم من الثورى  
ما لا يبلغ الثورى بالتصريح منه

- ٢ وسئل القاسم بن معن عن ابن أبي ليلى ، فقلب كفه وقال :  
من الناس من يخفى أبوه وجدّه وجدّ أبي ليلى لكالبدر ظاهره  
فلم تثبت عليه به حجة في ذم له ولا مدح ، وقد بلغ ما أراد  
٦ وسئل يوما عن علمه فقال : أوعوه وطبّا ، فإن كان محضاً أو مشوباً  
أظهره الوطب وما خضوه

- فإن قدح — جعلنى الله فداك — بالحسد قادح ، فإني أولّته من كتابي  
الك وسبق إلى وهمك شك فيه ، أعلمتني النكتة التي قدح فيها ، ثم قابله  
٩ بجوابي ، فإني أرجو ألا يحتاج إلى حاكم عند تجاني القولين بين يديك ، لعلّ  
الحق على الباطل ودموغه إيتاه

- والحسد أدلّ نفساً من أن يجاني أحداً ، والعداوة إنما قدّمت عليه لأنها  
١٢ عزيزة منيعة . ويقال : الحسد لا يبدو إلا في العين وعلى اللسان المقصور  
عند المؤتلفين على . . . ، والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها ،  
عند الموافقين له والمخالفين عليه

- ١٥ وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبه فقال : ذاك امرؤ سيط  
بالحسد وجبل عليه ، فليس له أخ في السر ولا عدو في العلانية  
وسئل العتّابي عن أهل بغداد فقال : حسّاد ، إخوان العلانية وأعداء  
السريّة ، يعطونك الكلّ ويمنعونك القلّ

(١) بالتبسم ، صححنا : من التبسم

(٧) وما خضوه — (١٤) يياض في الأصل بقدر كلمة

ومما يدلّك على أنّ الحسد أخسّ وأغبن من العداوة أنّ الللّ كلها ذمّته وعاقبه . ولا نعلم أنّ شاذّاً من الشواذّ . وشارداً من الشرّاد ، فضلاً عن جيل من الأجيال ، أمر بالحسد ، كما قد قيل : عاد من عادك ، وقارع بالعداوة أهلها . ثمّ عظم شأن العداوة عندهم وجلّ قدرها لديهم ، حتى اختلفوا في سبيلها ووجوه العمل فيها ، فمنهم من أمر بها على الحزم والعقل . وقال الشعبي لبشر بن مروان : لو وجهت إلى عمرو بن محمد بن عقيّل مولى آل الزبير ، وكان شتمه ، من يأتيك به سحجاً وجراً . فقال بشر : إني مستعمل في عدوى قول القائل :

١ وعاد إذا عاديت بالحزم والنهي      تنل ظفراً بمن تريد وتغلب  
فكان هذا ممن يرى المعادة بالحزم ويغتالها بالعقل والتأني

وكان عمرو بن المغيرة يقول : شرّ العداوة ما ستر بالمدارة وأشافها  
١٢ للأفئس ما قرع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

لا أتقى حسك الضفائن بالرقي      فعل الذليل ولو بقيت وحيدا  
لكن أعد لها ضفائن مثلاً      حتى أداوى بالحقود حقودا  
١٥ كالخزير دوائها منها بهما      تشفى السقيم وتبرئ المنجودا  
فانتهى قوله إلى ابن شبرمة فقال : لله درّ عروّة هذه أنفس العرب . فهو لا .  
رأوا كشف المعادة ولم يروا التأني

ومنهم من رأى المعادة بعد الفرار منها والإعذار فيها ، فإن هي أبت  
إلاً المقارنة قارنوها بمثلها . قال شبيب بن شيبه : إذا رأيت الشرّ قد أقبل



إليك فطامن له حتى يتخطاك ، ولا تهجه ولا تبحث عنه ، فإن أبى إلا أن ينزل عليك فكن من الأرض ناراً ساطعة تتلقى . وأنشد :

- إذا عاداك مُحْتَنِكٌ لبيب فعادِ النوم واحترس البيانا ٣  
ولا تثر الرَبُوضِ وخلَّ عنها وإن ثارت فكن شبيحاً مواتا  
تحول إلى سِوَاكَ ونح عنها فغير الشرِّ أسرع فواتا  
وإن مالت عليك وخفت منها فواجهها مجاهرةً صِلَـلاتا ٦

ومنه من أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عُبَيْدُ اللَّهِ بن عبد الله ابن مسعود : إن اللامات والمذمات كلها قبيحة ، وأقبح الملامة والمذمة ما كانتا في ترك نصفية أو شدة منافسة في تعداد الذنوب . وأنشأ يقول :

- منافسة العدو أو الصديق تجرُّ إلى المذمة واللامه  
إذا أعطاك نصفاً ذو ودادٍ وبعض النصف فاتهز السلامه ٩

ومنه من قال : لا ترض من عدوك إلا بالظلم ، ولا تقبل إنصافه ونافسه . من ذلك قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النصف منهم ولو أنصفوا حتى تمق وتظلموا

- ومنه من أمر بمعونة الدهر على العدو إذا حل عليه . قال : حدثني ١٥  
إبراهيم بن شعبة الخزومي ، قال : سمعت من حكى لي عن مصعب بن الزبير  
قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمت عدوك فبادره برجلك ، فإن سلم من الدهر  
لم يسلم منك . وأنشد : ١٨

إذا برك الزمان على عدوِّ بفسكته أعنتُ له الزمانا

قال العتابي : قلت لَطُوقُ بن مالك : إن من شرط الدهر ومن صناعة  
الزمان السلب ، فإذا حملت الأيام على عدوك ثقلاً وأمكنك منه ، فزده  
٣ رِثْقاً إلى رِثْقِهِ . قال : فقال لى طوق : من لم ينتهز من عدوه انتَهزَ مِنْهُ ،  
وحالت الأيام التي كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

٦ لله دُؤْلُك ما ظننتَ بِشائِرٍ حرَّانَ ليس على الترابِ برأقد  
أُحْقِدْتَهُ ثم اضطجعت ولم ينم أسفاً عليك وكيف نوم الحاقد  
إن تمكنَ الأيامُ منك وعلها يوماً توفك بالصُّوعِ الزائد  
ولئن سلَّمتَ لأتركَنَّكَ عارضاً بعدى لكلِّ مسلمٍ ومعايد

٩ ومنهم من كان يرى جبرَ كسرِ العدوِّ وإقالةَ عثرته ونصرته عند  
وثوب الدهر عليه . قال : حدثني ابنُ عبد الحميد ، قال ابن شبرمة : كانت  
الحربُ يومَ صفينَ بين العربِ محضةً لا شوبَ فيها ، فكانت محاربتهم كركراً  
١٢ واعتناقاً ، وكانوا إذا مرُّوا برجلٍ جريحٍ كانوا يقولون : خذْهُ قومه  
فانصروه وألقاه دهره بمضيعة فرَّذوه إلى أهله

وقال ابن شبرمة : ما زلنا نسمع أنَّ المصيباتِ تنزع السجيات . قال :  
١٥ وأنشدني بعض أهل العلم في هذا المعنى :

فلو بي بدأتم قبلَ من قد دعوتُم لفرَّجَتْها وحدي ولو بلغت جهدي  
إذا المرء ذوالقربى وذوالجند أجحفتُ به سنةٌ سلَّت مصيبته جمدي  
١٨ ومنهم من رأى الإفضال على عدوه وترك مجازاته ، وهذا كثير لا يحتاج  
فيه إلى استقصاء شواهد

قال غيلان بن خرشنة الضبي ، وقال بعضهم بل الأحنف بن قيس :  
لا يزالُ العربُ بخير ما لبستُ العأمُ وتقلدتُ السيوفَ وركبتُ الخيلَ ولم  
تأخذها حميةُ الأوغاد . قيل : وما حميةُ الأوغاد ؟ قال : أن يروا الحلمَ ٣  
ذلاً والتواهب ضياً

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان ؟ فقد عاداك ونصب

٦ لك . فقال :

ليست الأحلامُ في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وأشدني بعض العلماء بيتين ، وقال : إن الزهري كان كثيراً ما يتشغل بهما :

٩ وإني لأعبدائي على المقت والقتلى بنى الم منهم كاشحٌ وحسود  
أذبٌ وأرمي بالخصا من ورائهم وأبدأ بالحسنى لهم وأعود  
وكان عبد الله بن سمران إذا أنشد :

١٢ إني وإن كان ابنُ عمي كاشحاً لمراجعٌ من دونه وورائه  
ومُعيرُهُ نصرى وإن كان امرءاً متحزباً في أرضه وسمائه  
وإن اكتسب ثوباً نسيماً لم أقل يا ليت أن عليَّ حسنَ ردايه

١٥ وإذا تحرقق في غنياه وقرته وإذا تصعلك كنت من قرنايه  
قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند  
الإمكان والمسالمة عند الحاجة

١٨ ومنهم من أسر بالسفاهة في العداوة ، واستعمال الخرق فيها . حدثني نوح  
ابن أحمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس ، قال : جاء النابغة الجعدي

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفى الله عنه ؟ قال : نعم ، قال : أنشدني منه ، فأنشده :

- ٣ وإنا لقوم ما نعوذ خيلنا إذا ما التقينا أن نحيّد وتنفرا  
وتنكر يوم الروع ألوان خيلنا من الطعن حتى يحسب الجون أشقرا  
وليس بمعروف لنا أن نردها سحاحا ولا مستنكراً أن نعفرها  
٦ بلقنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لتبغى فوق ذلك مظهرها  
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة ،  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى الجنة إن شاء الله . ثم رجع في  
٩ قصيدته فقال :

- ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدرها  
ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يُكدرًا  
١٢ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا فضّ الله فاك . فأتت عليه عشرون  
ومائة سنة ، كلما سقطت له سن أثقلت أخرى مكانها ، لدعوة رسول الله  
صلى الله عليه وسلم . فهذا أحسن ما روى في البادرة التي يُصان بها الحلم  
١٥ وقال الشاعر الجاهليّ :

- صفحتنا عن بنى ذهل وقلنا القوم إخوان  
عسى الأيام أن يرجع ن حياً كالذى كانوا  
١٨ فلما صرخ الشرّ وأمسى وهو غرثان  
مشينا مشية الليث بدا والليث غضبان  
بضرب فيه توهين وتضجيع وإذعان  
وطعن ككفم الزقّ وها والزق ملآن .  
٢١

وفى الشرَّ نَجاةً حَيٍّ ن لا ينجيك إحسان

- حدثنا أبو مسهر ، عن أبيه ، عن خالد بن عمرو الكلابي ، قال : كنا مع  
أبي برزة الأسلمي في غزاة ، فكان مثا رجل يمتار لنا الميرة ويقوم بحوائجنا ،  
فإذا أقبل قلنا : جزاك الله خيراً ، فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك إلى أبي برزة ،  
فقال أبو برزة : كنا نسمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ، فآلقبوا له .  
فكنا نقول له إذا أتانا بالحوائج : جزاك الله شراً وعسراً ، فيضحك لذلك  
وأنشدني رجل عن بعض الأعراب :

- أرى الحلم في بعض المواطن ذلةً      وفي بعضها عزاً يشرف فاعله  
إذا أنت لم تدفع بملك جاهلا      سفيهاً ولم تقرن به من يجاهله  
لبست له ثوب المذلة صاعراً      فأصبح قد أودى بحقك باطله  
فأبق على جهال قومك إنه      لكل حكيم موطن هو جاهله  
وروي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : استوصوا بالفؤاء خيراً ، فإنهم  
يعطون الحريق ويسدون البشوق  
وقال أبو سلمى في الجاهلية :

- لا بد للسؤدد من رماح      ومن عداة يُتقى بالراح  
ومن كلابٍ حمة النباح

وقال مسلم بن الوليد :

- حلفت لئن لم تكفى سفهاءا      خزاعة والحَيَّان عوف وأسلم  
لأرتجمن الوُدَّ بيني وبينها      بقافية تقرى العروق فتحسم  
من اللاء لا يرجعن إلّا شوارداً      لهنّ بأفواه الرجال تهمم  
أصابوا حليماً فاستعدوا مجاهل      إذا الحلم لم يمنعك فالجهل أحزم

ولم نستقص الأبواب كلها المعارضة في هذا الكتاب ، ولو استقصينا  
لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي ، إلى بلوغ الغاية في تمام الكتاب . وإنما  
٣ ذكرنا من كل باب عرضاً ما دل على معناه الذي إليه قصد

ولم نر الحسد أمر به أحد من العرب والعجم في حالٍ من الأحوال ، ولا  
ندب إليه وثبه عليه . وقد ثبته على العداوة ، وفُصل بين أحوالها بما قد  
٦ بيناه ، فظهر فضلها على الحسد بذلك

وكنْتُ امرأةً قليل الحُساد ، حتَّى اعتصمت بعروتك واستمسكت  
بجبلك واستذرات في ظلك ، فتراكم على الحُساد وازدحموا ، ورموني بسهامهم  
٩ من كل أوبٍ وأفيق ، وتتابعوا على تتابع الدبر على مشتار العسل . واثن كثروا  
لقد كثر بهبوب ريحك إخواني ، وبنبضة أيامك وزهرة دولتك خلّاني .  
وأنا كما قلت :

١٢ فأكثرْتُ حُسادى وأكثرَ خُلّانى وكنْتُ وحُسادى قليلٌ وخُلّانى  
فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب ، دخل على عشرة نفرٍ من  
الكتّاب ، قد شملهم معروفك ورفع مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك  
١٥ والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك . وجزيل فوائدك . فأفاضوا  
في حديث من أحاديث الحسد ، فشعب لهم ذلك الحديث شعوباً افتنوا فيها ،  
والحديث ذو شجون . فما برحوا حتَّى أتتني رُقعة أناسية من الحُساد ، فيها  
١٨ سهام الوعيد ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف للطعن على ما أوْلَف  
من الكتّاب ، إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يجرى على . فدفعتم رقعتهم إلى

مَنْ قَرَّبَ إِلَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَرَأَهَا ثُمَّ قَالَ : قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَبْطَلُكُمْ يَوْمُونَ  
النَّيْلُ وَيَلْتَمَسُونَ الشَّرْكَةَ فِي الْمَعْرُوفِ . لَتَنْزَعُ الرُّوحَ بِالْكَلايِبِ أَهْوَنَ مِنْ  
بَذْلِ مَعْرُوفٍ بِتَرْهِيْبٍ . وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

٣

أَمَّا الْخَوَادِثُ مِنْ خَلِيٍّ لَكَ مِثْلُ جَنْدَلَةِ الْمَرَاثِمِ  
فَدَرَامِي الْأَعْدَاءِ قَبِيٍّ لَكَ فَامْتَنَعْتَ مِنَ الْغَلَامِ

وَدَفَعَهَا إِلَىٰ مَنْ قَرَّبَ مِنْهُ فَقَرَأَهَا ، وَقَالَ الثَّانِي : صَكَّةَ جَلُودٍ لِّكُلِّ مُرْعِدٍ  
حَسُودٍ يَسْتَمْطِرُ الْغُرْفَ بِالْتَّهْدِيدِ ، خَلَّ الْوَعِيدُ يَذْهَبُ فِي الْبَيْدِ . وَأَنْشَأَ  
يَقُولُ :

٩

أَبْرَقَ وَأَرْعَدَ يَا يَزِيْرُ دَفْعًا وَعَيْدُكَ لِي بِضَائِرٍ

وَدَفَعَهَا إِلَى الثَّالِثِ فَقَرَأَهَا وَقَالَ : سَأَلُوا ظَلَمًا وَخَوَّفُوا هَضْمًا ، لَقُوا حَرْبًا وَلَقِيتَ  
سَلَامًا . وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

١٢

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مَرْبَعًا أَبْشَرَ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَأْمُرِعُ

وَدَفَعَهَا إِلَى الرَّابِعِ فَقَرَأَهَا وَقَالَ : قَوْلُ الذَّلِيلِ وَبَوْلُهُ سَيَّانٍ . وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلَ أَهْجُوتَهَا أَمْ بُلَّتْ حَيْثُ تَتَنَاطَلَحُ الْبَحْرَانِ

وَدَفَعَهَا إِلَى الْخَامِسِ فَقَرَأَهَا وَقَالَ : نَهَيْتُ الْحِمَارَ وَدَمَ الْأَعْيَارَ ، جُبَّارَ جُبَّارٍ .  
وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

مَا أَبَالَى أَنْبَ بِالْحَزَنِ تَيْسٍ أَمْ لِحَانِي بِظَهْرِ غَيْبٍ لَيْثِمٍ

وَدَفَعَهَا إِلَى السَّادِسِ فَقَرَأَهَا وَقَالَ : إِذَا عَلَّقْتَكَ الْأَعْبَادَ فَلَيْتَنِي عَلَيْكَ الْحَسَادُ .  
وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

إِذَا أَهْلُ الْكَرَامَةِ أَكْرَمُونِي فَلَا أَخْشَى الْهُوَانَ مِنَ اللَّثَامِ

ودفعها إلى السابغ فقرأها وقال : كيف يخاف الصرعة مَنْ هو في ذى المنعة .  
وأنشأ يقول :

٣ كم تنبحون وما يغنى نباحكم ما يملك الكلبُ غير النبح من ضرر  
ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : توكلْ هلكي ، لم يعرفوا خبرك ولا دروا  
أسرك . وأنشأ يقول :

٦ فلو علم الكلاب بنو الكلاب بحالك عند سيدنا لذوا  
وعندى صديق لى من السوق له أدب ، فقال لى بعقب فراغهم مُسرّاً : إنَّ  
هؤلاء السكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحساد ، وضربوا الأمثال  
٩ فى هوانهم عليك ، وعرفوا أنك فى منعة من عزِّ أبى الحسن — أطال الله  
بقاءه — ومقل لا يسامى ولا ينال ، وأنا أقول بالشفقة :

تَوَكَّلْ قوماً من الحساد قد قصدوا لخطَّ قدرك فى رسرٍ وفى علانٍ  
١٢ فقلت له : إني أقول بيتين هما جوابك وجواب الحساد :

إنَّ ابن يحيى عبيد الله أمتنى من الحوادث بعد الخوف من زمنى  
فلمست أحذر حسادى وإن كثروا ما دُمْتُ مُمسك حبل من أبى الحسن  
١٥ فلما رأى صديقى اقتفانى آثار السكتاب ، باستهانتى بالحساد عند اعتلاقي  
حبائك — أعزك الله — أنشأ متمثلاً يقول بشعر نصر بن سيار :

إني نشأت وحسادى ذرو عدو يا ذا المارج لا تنقص لهم عددا  
١٨ إن يحسدونى على ما قد بنيت لهم فقتل حسن بلائى جرَّ لى الحساد  
وليس العجب أن يكثرُوا ، وأنا أنعق بمحاسنك وأهتف بشكرك ، ولكن  
العجب كيف لا تنفقت أكبادهم كدأ . وكان بعضهم يقول : اللهم كثر حساد



ولدى ، فإنهم لا يكثرُونَ إِلَّا بِكَثْرَةِ النِّعْمَةِ . فَإِنْ كَانَ وَالِدِي سَبَقَ مِنْهُ هَذَا  
الدُّعَاءُ ، فَإِنَّ الإِجَابَةَ كَانَتْ مُجِبَّةً إِلَى زَمَانِ عَرْكِ ، فَقَدْ رَأَيْنَا تَبَاشِيرَهَا وَبَدَتْ  
لَنَا عِنْدَ عَفَايَتِكَ غَايَتَهَا

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعل لى محسودين ولا تجعلهم  
مرحومين ، فَإِنَّ يَوْمَ الْحُسُودِ يَوْمٌ عَزَّاهُ وَيَوْمُ الْخَاسِدِ يَوْمٌ ذَلَّهُ

ويقال إنه لما مات الحجاج سمعوا جاريةً خلف جنازته وهى تقول :  
اليوم يرحمنا مَنْ كَانَ يَحْسُدُنَا واليوم تنبغ مَنْ كَانُوا لَنَا تَبَعًا

ويقال إن زياد بن أبيه قال لحُرَّة ابنة النعمان : أخبرينى بحالكم ،  
قالت : إن شئتُ أَجَلْتُ وإن شئتُ فَسَرْتُ ، فقال لها : أَجَلِي ، فقالت :  
بِتَنَا نَحْسَدُ وَأَصْبَحْنَا تُرَحَّمُ . نَحْطِبُهَا زِيَادَ — وَكَانَتْ فِي دِيرِهَا — فَكَشَفَتْ  
عَنْ رَأْسِهَا ، فَإِذَا رَأْسُ مَحْلُوقٍ ، فقالت : أَرَأْسُ عَرُوسٍ كَمَا تَرَى يَا زِيَادُ ؟  
وَأَعْطَاهَا دَنَانِيرَ فَأَخَذَتْهَا وَقَالَتْ : جِزْنُكَ يَدُ افْتَقَرَتْ بَعْدَ غَنَى ، وَلَا جِزْنُكَ يَدُ  
اسْتَفْتَنْتْ بَعْدَ فَقْرٍ

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديثِ رُؤْيَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ ، رَجُلٌ أَتَاهُ اللَّهُ حَفِظَ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ  
آثَاءَ اللَّيْلِ وَآثَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ أَتَاهُ اللَّهُ مَا لَّا فَهُوَ يَنْفَقُهُ فِي وَجْهِ الْبَرِّ آثَاءَ  
الْأَيَّامِ وَآثَاءَ النَّهَارِ . فَهَذَا الْحَسَدُ إِنَّمَا هُوَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وقال بعض الأشراف :

- ٢ احسد على نيل المكارم والعَلَا إذ لم تكن في حالة الحسود  
 حسد الفتي في المكرمات لغيره كرم ولكن ليس بالمعدود
- فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد . وزادك الله شرفاً وفضلاً وعِلماً  
 ومعرفة ، ولا زلت بالمكان الذي يُهدى إليك الكتب ، ويتحف بنوادر  
 العلوم وفرائد الآداب إنه قريب مجيب"

## فهرس الرسائل التي يحويها هذا المجموع

صفحة

- ١ — رسالة المعاد والمعاش ... .. ٩
- ٢ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ... .. ٣٧
- ٣ — رسالة في الجبد والهزل ... .. ٦١
- ٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ... .. ٩٩



## تصحیحات

ص ٣٨ : وردت الفظة « وقيل من استوى » ( سطر ١ ) إلى آخر سطر ٩ في نسخة  
ب أيضا وفيها رواية أخرى للآيات المذكورة في سطر ٤-٥ :  
رَأَيْتَكَ أَمْسِرَ سُدَّتْ بَنَى مَعْدَ .....  
وَأَنْتَ غَسْدًا تَرِيدُ الضَّعْفَ مِنْهُ .....  
أما بقية التصحيحات التي نقترحها فهي :

صفحة	خطأ	صواب
٣٨ : ٨	تجى به	نَحْنِي لَهُ ( كَذَا ب )
٣٩ : ٥	بقدره الله	بقدره الله
٤١ : ١٢	الأساقف	الأساقف
٤٣ : ٩	الحدث	المحدث
٤٣ : ١٨	لم يخرج به	لم يخرج به
٥١ : ١٨	الطعن ... والتجسس	الطعن والتجسس
٥١ : ١٨	وعشق	وعشق
٥١ : ١٨	واستحلال	واستحلال
٥١ : ١٨	ظاهراً	ظاهراً ؟
٥٦ : ٨	كفؤه	كفؤه
٦٠ : ١	فسكان العارض	فسكان العارض
٦٠ : ١٠	والآخذ	والآخذ
٦٠ : ١١	< منه > إن	من
٦٥ : ٢	العلاظ	الغلاظ
٦٥ : ٥	الغظائع	القطائع ؟
٦٧ : ١٣	غرمه	غرمه
٦٨ : ٤	اكتراه	اكتراهك ؟
٧١ : ٧	ويذره	ويذره
٧٢ : ٥	الاعتزام	الاعتزام ؟
٧٥ : ١٥	يوى	يوى
٧٦ : ٤	سكينه	سكينه ؟
٨٠ : ١٧	لنمرض	لنمرض
٩٠ : ٥	بدلك	بدلك
٩١ : ٨	واصابة	واصابة
٩١ : ١٨	والنهاية	والنهاية
٩١ : ١٨	المسكنة	المسكنة
٩٢ : ١٠	وتباعد	وتباعد
٩٧ : ١	اخطى	أخطى
٩٧ : ٦	والغضب	والغضب





3

0419783



Bibliotheca Alexandrina